البعد الثالث
بين الناس في نطاق الاقتصاد والسياسة والاجتماع

١ ــ معركة مبكرة بين الإسلام وطغاة المال .
٢ ــ الاشتراكية كلمة إسلامية لفظاً ومضموناً .
٣ ــ الأسس النفسية لبناء الاشتراكية الإسلامية .

(ا) المشاركة الوجدانية .
(ب) المشاركة العملية ، أو التكافل الاجتماعي .
(حـ) المسئولية التضامنية والقيادة الجماعية .
(د) الحرية المتكاملة للفرد .
(هـ) كرامة الفرد وسلطة الدولة .
(و) الحضانة الخلقية للنظم والمبادىء .

٤ ــ المال في موازين الإسلام .
٥ ــ المبادئ العامة لاشتراكية الإسلام في المال .
٦ ــ بين الفكر والعقيدة والعمل .

(ا) قيم العمل .
(ب) إتقان العمل .
(حـ) العمل أساس الجزاء .
(د) الترف والتعطل بالوراثة .

معركة مبكرة بين الإسلام وطغاة المال

إن المعركة بين الإسلام وطغاة المال وكبريائهم وترفهم وإسرافهم وبوارهم وإعراضهم عن دعوات الحق والإصلاح ومقاومتهم إياها ، بدأت منذ بدأ نزول القرآن ، وكانت على أشدها فى السور الأولى نزولا ، وكانت لا تخلو منها سورة منزلة ، بل كانت تشارك الدعوة إلى الإيمان بالله ووحدانيته فى حيز تلك السور ، وكأنما كانت الرسالة نازلة لتحطيم طغاة المال وتحرير الناس من سلطانهم كما كانت لإقرار الوحدانية و بيان الشئون الإلهية واليوم الآخر .

وقد كشفت المقاومة التى بدأها طغاة المال نحو الإسلام ، أن أشد العقبات فى طريق دعوات الإيمان والتحرير والإصلاح ونقل المجتمعات من طور انحطاط إلى طور رقى ، هم المترفون أولو النعمة المكذبون .

وهذا شيء يبدو منطقيًّا ، لأن سادة المجتمعات الضالة الفاسدة لا يريدون التغيير والتبديل لما استقرت عليه أوضاع حياتهم ، خشية ذهاب سلطانهم أو ثرواتهم وجاههم .

ومن هنا كان أول أتباع رسل الدين ودعاة الإصلاح والتحرير والكرامة الإنسانية ، هم المستضعفون والمعذبون والمحرومون ، من العبيد والفقراء والمستضعفين ، لأنهم هم الذين من مصلحتهم تغيير الحال ، لعل وعسى أن يأتى التغيير لهم بخير .

تلك سنة مطردة يشير إليها تاريخ كل حركة دينية أو إصلاحية فى جميع الأمكنة والأزمنة ، ولا حاجة بنا إلى ضرب الأمثلة . وحسبنا هذا القول المطلق من القرآن : (كَذلك ما أَرْسَلْنَا فى قريةٍ من نذير إلا قال مُتْرَفُوها إنَّا بما أُرْسِلْتُم به كافرون) .

وقد سجل القرآن ذلك بسوره وآياته فى عهده الأول الذى يكشف بل يثبت هذه الظاهرة التاريخية وتكرارها مع قصة كل نبى و رسول .

وسنرون أنه لم يحطم كبرياء المال وسلطان طغاته فى نفوس جميع الأمم مثل دعوة القرآن ، حينما ألغى من معايير قيم الشخصية الفردية معيار الغنى والجاه ، وجعل المعيار هو التقوى (إن أكرَمَكم عند الله أتقاكم) .

وما أظن معركة معنوية شنت على الطغيان المالى مثل هذه المعركة التى شنها القرآن من أول نزوله ، وجعلها مصاحبة لفرض نظامه فى العدالة الاجتماعية المتمثل فى الزكاة والصدقات .

وإذا علمنا أن عصر نزول القرآن لم يكن يتوقع فيه ، أن يجرؤ مجترئ على التفكير فى المبادئ الاشتراكية ومبادئ الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ، أدركنا أن الإسلام لا يجوز مطلقاً أن يعد من الأديان التى تخدِّر معتنقيها ، وتصرفهم عن المطالبة بالعدالة الاجتماعية والاشتراكية المعقولة . . . بل على العكس يجب أن يعد أعظم ثورة مبكرة ضد الطغيان بجميع أشكاله ، وأول نظام اشتراكى معقول جمع بين كفالة حقوق الملكية الفردية ليحتفظ بالحوافز التى يزيد بها العمران والنشاط والإنتاج ، وبين حقوق المحرومين والكادحين وذوى الحاجة وتساوى الناس وتكافؤ الفرص أمامهم جميعًا .

ولنستعرض كل السور القرآنية الأولى نزولا لنرى هجوم القرآن على طغاة المال المترفين المكذبين . . . فى أول سورة أنزلت بيان عام لطبيعة النفس البشرية ، وأنها تطغى إذا رأت نفسها قد استغنت . كما أن فيها تهديداً لطغاة المال بالحساب العسير وبالزبانية يوم الرجعى إلى الله ، وإهداراً وتحقيراً لمن اعتز بماله وأهل ناديه وقومه فى محاربة دعوة الحق والصلاح والتعرف والتقرب إلى الله . واقرأوا : (إن الإنسانَ لَيطْغَى آن رآهُ استغنى) إلى آخر سورة العلق .

وفى ثانية السور نزولا ، مواجهةٌ بالتهديد لذوى النعمة المترفين المكذبين ، وتخلية بينهم وبين سيد الوجود وواضع نظام العدالة فيه ، الذى يعلم كيف يقتص منهم : (ذَرْنِى والمكذِّبين أُولِى النَّعْمَة ومَهِّلْهُم قليلا . إن لَدَيْنَا أَنْكَالاً وجحيما وطعاماً ذَا غُصَّةٍ وعَذَابا أليما . .)

وفى ثالثة السور نزولا تهديد بنفس الأسلوب السابق : (ذَرْنِى ومن خلقتُ وحيدا ، وجعلتُ له مالاً مَمْدُودا . وبنين شهُودًا . ومَهَّدْتُ له تمهيدا . ثم يَطْمَع أن أزيدَ . . كلاّ ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأُرهقُه صَعُودًا . .) إلى آخره . . .

وفى الآيات التالية عرض لنموذج فريد من كبرياء هؤلاء الطغاة ونمط غرورهم وتفكيرهم وتدبيرهم ؛ (ثم نَظَرَ. ثم عَبَس وبَسَر . ثم أَدْبَر واستكبر. فقال إنْ هذا إلا سحرٌ يُؤْثَرُ. إنْ هذا إلا قولُ البَشَر . سأُصْليه سَقَرَ . .)

ثم تتابعت السور نزولا على هذا النسق العجيب المحطم للشخصيات المترفة المكذبة الطاغية بالمال ، والتى كانت تحول بين الناس وتلبية دعوة الحق والإصلاح المبنى على العدالة والحرية والمساواة . . . فنجد سورة أخرى ترينا صورة لنفسية صغيرة حقيرة من صور أخلاق المكذبين المغرورين بما جمعوه من مال :

(ويلٌ لكل هُمَزةٍ لُمَزةٍ ! الذى جَمَع مالاً وعَدَّدهُ . يَحْسَبُ أنَّ مالَه أَخْلَدَه . كلاَّ ، لَيُنْبَذَنَّ فى الحُطَمَة . وما أدراك ما الحُطَمَةُ ، نارُ الله المُوقَدَة . .)

ثم سورة أخرى تتناول نموذجًا حقيراً آخر من هؤلاء تناولا قاسيًا محقّراً لكبريائه ومحطمًا لجاهه : (ولا تُطعْ كلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ ، همّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ للخير مُعْتدٍ أثيمٍ. عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيمٍ . أَنْ كان ذا مال وبَنِينَ).

ثم نجد فى سورة أخرى حديثاً عامًّا لطبيعة المكذبين بالدين وقسوتهم على الضعفاء والمحتاجين للعطف والمعونة ، مع بيان أنه لا قيمة لشكليات الدين مع فقدان جوهره :

(أرأيتَ الذى يكذِّبُ بالدِّينِ فذلك الذى يَدُعُّ اليَتِيمَ . ولا يحُضُّ على طَعام المسْكين . فويْلٌ للمصلِّينَ الذينَ هُمْ عن صَلاتِهِمْ ساهُونَ . الَّذينَ هُم يُراءُونَ ويَمْنَعُون المَاعُونَ)

وإن هذه السورة لجديرة بأن تطبع فى ذهن كل مؤمن ليتذكر دائمًا أن جوهر الدين ولبابه بعد العقيدة هو انشغال فكره وجهده بحاجات الضعفاء والمحرومين ومعونة المحتاجين .

ثم لننظر فى سورة أخرى كيف قرن القرآن اليسر والسهولة والطمأنينة والسعادة بحياة البذل والعطاء والتكافل والإحسان والحذر من عواقب احتجاز المال عن المحتاجين ، وكيف قرن العُسْر والضيق والقلق والشقاء بحياة البخل والشح فى المال ومنعه عن معونات الناس ، وذلك فى قوله :

(فأما من أعْطَى واتقَى وصدَّق بالحُسنَى . فَسَنُيسِّرُه لليُسْرَى . وأما مَنْ بَخِلَ واستغنَى وكذَّب بالحُسْنى فسنيسرُه للعُسْرَى . وما يُغْنِى عنه مالُه إذَا تَردَّى).

ثم يحطم القرآن الظنون الجاهلية فى توهم أن هناك علاقة بين كرامة الإنسان لدى سيد الوجود وبين المركز المالى ، مبيناً أن كرامة الإنسان لدى الله شىء آخر ، متعلق بتحرير الرقاب وبالتواصى والحض على إكرام اليتيم والضعيف وإطعام المسكين ، ومبيناً كذلك أن المهانة والمشأمة فى حياة المجتمع ناشئتان من عدم اقتحام العقبة الكبرى وهى عقبة اختلال الأوضاع المالية بين الناس ، بأكل التراث الطبيعى الذى وضعه الله لهم جميعاً ، أكلا لمًّا شرهاً نهماً ، وحب جمع المال والاغترار به والإسراف فيه مع نسيان حقوق المجتمع: (فأَمَّا الإنسانُ إذا ما ابْتَلاَه ربُّه فأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَه . .) إلى آخر الآيات فى سورة الفجر . . .)

وقد بينت سورة البلد أن حياة الإنسان حياة كَبَد وتعب ومشقة من معاناة فساد الأوضاع الاقتصادية بين الناس واختلالها بطغيان المسرفين والمترفين المقترن بما يملكون وينفقون من مال : (أيحسبُ أنْ لَنْ يَقْدرَ عليه أحدٌ. يقول أهلكتُ مالاً لُبدا . .) وهو قول يمثل غرور الإنسان بالقدرة المالية وفساد تصوره لوجوه إنفاقه .

كما بينت السورة أن اقتحام عقبة الحياة الاجتماعية لا يكون إلا بتحرير رقاب الناس من أنواع العبودية وبتعاطف الطبقات وترابطها برباط المرحمة وتواصيها بها ، ومراعاتها إحساس غيرها وشعوره وتطلع نظره وفكره لما يتمتع به غيره ، وذلك حتى لا تصاب الحياة الاجتماعية بالتفكك والانحلال والعداوة والبغضاء التى تجلب على الناس المشأمة والدمار . . .

والقرآن دائماً يذكر الناس بالوضع الصحيح للمال ، وهو أنه ، مال الله ، وأن الله استخلفنا فيه وخولنا التصرف به (لَهُ مُلْكُ السموات والأَرضِ) ، (آمنُوا باللهِ ورسولهِ وأَنْفِقُوا ممّا جعلكم مُسْتَخْلَفين فيه) : (وآتُوهم من مالِ الله الذى آتاكم) .

والقرآن فى سبيل تربية الوجدان اليقظ المدرك لحقوق الله والناس فى المال الخاص ، يستعمل مختلف الأساليب ، ويذكر الوقائع ويقص القصص .

فهو يذكر فى سورة الكهف صورة من صور غرور النفس وفخرها بمالها وحسبانها أن قيمتها متعلقة بما تملك منه ، وذلك فى قصة صاحب الحديقتين ومحاورته لصاحبه الفقير وفخره عليه بكثرة ماله وولده . . . وتبين القصة مقدار الصلف والغرور الذى أصاب نفسه من نجاحه فى إنشاء الجنتين وأنه أكثر مالا وأعز نفرا ، وعن ظنه خلود جنتيه واستعصاءهما على عوامل الفناء ونسيانه ضعفه وأنه خلق من تراب وأنه سائر إلى يوم الحساب ، وأنه هو وجنته لم يخرجا عن ملك الله الذى يقدر على إهلاكهما .

ثم تبين القصة ما أصاب الحديقة من إهلاك ثمرها وتحطيم جشع صاحبها وغروره حين وقف: (فأصبح يُقَلِّبُ كَفَّيْه على ما أنفقَ فيها وهِى خاوية على عُرُوشها)

كما يذكر القرآن قصة أخرى فى سورة « ن والقلم» وهى قصة أصحاب حديقة أخرى تآمروا على حق المساكين فى محصولها ، وأرادوا أن يغتالوه ولا يؤدوه ، حين عزموا على أن يتوجهوا فى غبش الصباح لجنى المحصول خلسة وهم يتهامسون و يتخافتون خوفًا من أن يسمعهم المساكين فيستيقظوا ويتبعوهم لأخذ نصيبهم . . . فإذا بيد الله ترسل عليها طائفًا يحرقها ويهلك محصولها ، عقابًا لمالكيها على نيتهم السيئة نحو حق الفقراء .

وهاتان القصتان تعرضان صورتين من طغيان حب المال على النفوس وتخريبه لوجدانها ، وتعلنان حربًا على وساوس الجشع والشح والغرور ومنع حق المحرومين وذوى الحقوق ، وتقيمان أمام صاحب الضمير حرسًا ورصداً يخيفه ويهدده بتخريب أمواله وسحقها إذا ما عنّ له أن يغتال حقوق الفقراء فيها أو يختلسها فى غفلة من الرقباء أو يفترس بها الضعفاء .

وحرب التخريب والمحق هذه تتولاها يد الله وتشنها على المفترسين المستغلين للناس بالطرق الربوية . . . : (يمحقُ اللهُ الرِّبَا ويُرْبِى الصدقات)

وهى تطلق سلطان الدولة فى محقها أو مصادرتها

(فإن لم تفعلُوا فَأْذَنُوا بحربٍ من الله ورسوله ! وان تُبْتُمْ فلَكم رءُوس أموالِكُم لا تَظلِمُون ولا تُظْلَمُون) .

الاشتراكية كلمة إسلامية لفظاً ومضموناً

ينفر بعض المسلمين الحرفيين من استعمال كلمة (الاشتراكية) بدلا من كلمة (العدالة الاجتماعية) أو (التكافل الاجتماعى) مثلا ، لأن كلمة الاشتراكية قد استعملت فى هذه العصر اسما لبعض المذاهب والدعوات التى لا عهد للمسلمين بها فى رأى هؤلاء الحرفيين ، ولأنها فى بعض استعمالاتها تشمل مفاهيم وعقائد ونظماً وشرائع وأخلاقاً مثل شمول كلمة (الإسلام) . كما أن استعمالها لدى بعض الأقوام يعطى مفاهيم تناقض الإسلام ، كإنكار وجود الله ، والتحلل من الدين ، أو كالشيوعية المطلقة فى الأموال والأعراض

وحينئذ يكون فى استبدالها بالاسم الذى اختاره الله لدينه وشريعته وهو (الإسلام) خروج على اختيار الله . . . وفى هذا ما فيه من سوء الرأى وسوء الأدب ، على الأقل ، حينما نستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير . . .

فأما أن كلمة (الاشتراكية) قد استعملت لترجمة دعوة مستوردة من الغرب أو الشرق ، فذلك غير صحيح ، لأنها كلمة عربية إسلامية لفظاً ومضموناً ، قد أخذت واشتقت من لفظ عربى استعمله نبى الإسلام والمسلمون من بعده فى المعنى الذى يريده من نفس التسمية الغربيون والشرقيون فى المجال الاقتصادى ، وهذا المعنى هو « الملكية المشتركة » بين الناس جميعاً للمصادر الأساسية للأموال والأرزاق الضرورية ، وذلك فى قول رسول الإسلام باللفظ الصريح : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلاء والنار » وفى مضمون قول عمر بن الخطاب « ما أحد من المسلمين إلا وله فى هذا المال حق أعطيته ، أو منعته » وفى قول أبى عبيد صاحب كتاب الأموال باللفظ الصريح فى التمهيد لقول عمر السابق « إن عمر رحمه الله رأى أن كل المسلمين فى هذا المال شركاء » وفى قوله الصريح كذلك : « وقال آخرون بل المسلمون فى هذا المال شركاء فيه كلهم » .

يضاف إلى ذلك ، بل هو الأصل فيه فى الواقع ، أن مضمون قول القرآن : (وفى أموالهم حقٌ للسائل والمحروم) وقوله (هو الذى خلق لكم ما فى

الأرض جميعاً) : (وآتُوا حَقَّهُ يوم حَصَاده) وقوله (وآتِ ذا القُرْبَى حَقَّهُ والمِسكينَ وابنَ السبيل) مضمون واضح فى أن ملكية الأموال الخاصة ليست خالصة لأصحابها على إطلاقها ، بل تتعلق بها حقوق لآخرين هم المذكورون فى آية مصارف الصدقات والزكاة . . . والشىء الذى تتعدد فيه الحقوق يكون مشتركاً ، واقعاً وحكماً ، بين من هو فى حيازته وبين أصحاب الحقوق فيه .

ولا شك أن قول القرآن مخاطباً الجنس البشرى كله ، لا فرداً بعينه ولا أمة بعينها « هُوَ الذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فى الأَرضِ جَمِيعاً قاطع فى الدلالة على أن ملكية مصادر الأموال والأرزاق كلها ملكية عامة ، الناس كلهم فيها شركاء ، وهى ملكية بتخويل الله للإنسان واستخلافه عليها كما يتضح ذلك فى مواضعه من فصول هذا الكتاب .

وأما أن كلمة الاشتراكية فى بعض الاستعمالات تعطى المفاهيم العامة التى يتضمنها الإسلام ، وفى بعض الصور قد تعطى مضامين ينكرها الإسلام كالإلحاد أو الهدم أو الانحلال أو الشيوع المطلق فى الأموال والأعراض إلى آخره ، فذلك أيضاً غير وارد فى الاستعمال العربى الحديث لكلمة الاشتراكية ، لأن دعوة « الاشتراكية العربية » دعوة موجهة إلى الترجمة بلغة العصر عن مقصد واحد من المقاصد التى سبق إليها الإسلام ، وهو العدالة الاجتماعية ، أو الاشتراك أو التكافل فى دائرة الأموال والحياة الاقتصادية ، ولأن (الاشتراكية) العربية قد نصت فى ميثاقها وبياناتها على أنها تؤمن بالدين وتعرف له مكانته وآثاره وضرورته فى حياة الناس لتحريرهم من المظالم والعبودية لغير الله ، ولإثارتهم على الطغيان بجميع أشكاله ، لأن الأديان عند نزولها كانت ثورات بكل معنى كلمة الثورة لتحرير عقل الإنسان ووجدانه وجسمه ورزقه من الجهل والطغيان والاستغلال والفساد والجشع والإذلال .

وبهذا كله يتضح أنه ليس هناك استبدال كلمة ضيقة ذات مضمون واحد هو الاشتراكية فى الأموال ، بكلمة عامة متعددة المضامين هى الإسلام . . . وأنه ليس هناك مراد سيىء مناقض للإسلام والإيمان تنطوى عليه كلمة الاشتراكية بمفهومها العربى الواضح فى ميثاق الاشتراكية العربية .

بل أذهب بعيداً عن منطق الحَرْفِيّين وأقول : على فرض أن اسم (الاشتراكية) – أو أى اسم آخر – يطلق ويراد منه مضمون الإسلام كله عقيدة وشريعة وأخلاقاً وسياسة واقتصاداً إلى آخره . . . فماذا يضير الإسلام حين نقول للذين يعتنقون هذا المضمون تحت أى اسم : إن هذا الذى تعتنقونه هو نفس ما نعتنقه باسم الإسلام ؟ وأن نقول لهم كذلك : إنه لا مانع لدى الإسلام أن نلتقى معكم على أى اسم يستهويكم ويستميلكم ما دام المضمون هو مضمون الإسلام مقترنا باسم الله . . . تماماً كما كان المنطق الإسلامى الواسع غير الحرفى فى عهد نزول الإسلام ، والمتمثل فى قول القرآن لأهل الكتاب لمنع الاختلاف حول الأسماء والألفاظ

(قل يا أَهلَ الكتاب تَعَالَوْا إلى كلمة سَواءٍ بيننا وبينكم : أَنْ لاَ نَعْبدَ إلا الله ولا نُشْركَ به شيئاً ، ولا يَتَّخذَ بعضُنا بعضاً أَرْباباً من دون الله ، فإن تَوَلَّوْا فقُولُوا اشْهَدُوا بأَنَّا مسلمُون)

ومعنى ذلك أن أية كلمة تضم هذه المعانى التى ذكرتها الآية هى كلمة يستوى أمرها بين المسلمين وأهل الكتاب . . . فليس اللفظ أمراً يستحق الخلاف ما دام المعنى واحداً متفقاً عليه .

نعم ليس الإسلام هو الدين الذى يتعبد الناس بالأسماء والشكليات ، لأنه يريد أولا جوهر الأمور ولُبابها لا أسماءها وأشكالها . . . وقد جاء اسم « الإسلام » بلفظه القرآنى العربى علَماً على الدين الذى لا ينتسب معتنقه إلى شخص ، كالمسيحية ، أو إلى قوم ، كاليهودية ، بل إلى معنى استسلام العقل والضمير لله الخالق وإرادته وفطرته التى فطر الناس عليها ، ولذلك قال القرآن « إن الدين عند الله الإسلامُ » وقرر أنه اسم لجميع رسالات الله الخالدة المتجددة على مدى العصور ، وأن جميع معتنقيها من كل الأديان والأجناس هم « مسلمون » فى رأى القرآن ، كما بينا ذلك فى فصل « الباب الواسع » من هذا الكتاب .

وقد ردّ القرآن على أهل الكتاب الذين كانوا يعتقدون أن مناط النجاة والجزاء هو الانتساب إلى دين شخص أو قوم بعينهم ، وذلك فى مثل قوله : « وقالوا لن يَدْخُلَ الجنةَ إلا مَنْ كان هُودًا أو نَصارَى ، تلك أمانيُّهم ، قل هاتُوا

برهانَكم إن كنتم صادقين . بَلىٰ من أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وهو محسنٌ فلَه أَجرُه عنَد ربِّه ولا خوفٌ عليهم ولاهم يَحْزَنُون) .

وعلى ذلك يكون معنى كلمة « الإسلام» إطلاق الدين من قيود الانتساب إلى الأقوام أو الأشخاص ليكون الانتساب فيه إلى الله وحده ، مع الإقرار والاستسلام له بالطاعة ، والسير على مقتضى إرادته الواضحة فى الطبيعة والفطرة ، وهى إرادة السلام والحق والخير والعدالة والرحمة والجمال . . .

ومن هنا قال الأديب العالم الفيلسوف الألمانى الأشهر (جوته) للذى حدثه عن الإسلام : « إذا كان الإسلام كما وصفتَ فنحن كلنا مسلمون » .

وإنها لعبارة صادقة مصدَّقة من القرآن ، تُدْخل فى الإسلام أعداداً هائلة على مدى العصور واختلاف الأمكنة ، من الذين لا ينتسبون إلى اسمه ولكنهم يؤمنون ويعملون بمضمونه ، وتوحى للمسلمين فى كل عصر أن يقولوا لكثيرين جداً من الناس : أنتم مسلمون ولو لم تَعرفوا . . .

الأسس النفسية لبناء الاشتراكية الإسلامية
١ـ المشاركة الوجدانية

إن اتجاهنا نحن المسلمين إلى النظم والمبادئ التقدمية المعاصرة اتجاه عميق الجذور فى نفوسنا وإن لم تكن لتطبيقاته تلك الصور العصرية من حيث التفصيل والتنظيم والاستيعاب، ولذلك لم تواجهه مجتمعاتنا الحالية بالمقاومة والشحناء والحرب المريرة بين الطبقات كما جرى عليه الحال فى المجتمعات الغربية والشرقية. بل لقد تقبلتها مجتمعاتنا فى يسر وسهولة وترحيب، لأن تجاربنا فيها مبنية على صور من المحبة والتضامن رسمت فى خيالنا على وضع أننا «كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى[١]»: وأننا «كالبنيان يشد بعضه بعضا[٢]»، وأننا تتكافأ دماؤنا ويسعى بذمتنا وعهدنا أقلنا[٣]، وأننا يجب أن نحب للناس ما نحبه لأنفسنا ونكره لهم ما نكره لها[٤]، ليتحقق شرط إيماننا.

وقد وقَرَ وثبت فى نفوسنا أن عماد حياتنا الاجتماعية هو المشاركة الوجدانية بين الجميع، والتكافل الذى يتضامن فيه الأفراد فى المسئوليات والحقوق والواجبات، فكل فرد مسئول عن كل فرد كمسئوليته عن نفسه وأهله، ونحن جميعاً رعاة لغيرنا ورعايا لهم، فكلنا راع مسئول عن رعيته.

وكل هذه الأسس النفسية تقوم عليها الاشتراكية السياسية والاقتصادية بالنظم والقوانين فى أشكال حياة المجتمع، فهى ليست اشتراكية قائمة على النظريات وحسب، ولم نخضع نحن لها خضوعاً آلياً جافاً على أساس من الخوف والرهبة من السلطة والقانون والدولة، وإنما هى قائمة على فيض من نبع وجداننا وعلى قوى الدفع الروحية فى كياننا، شأننا فى ذلك كشأننا فى كل مبادئنا التى تحكم حياتنا من داخل نفوسنا أولاً ونتعبد بها لله ونصدر عنها بعد إيمان واقتناع بها.

ونحن إذا أقمنا اشتراكيتنا بهذا الوصف وهذا الوضع لا نخشى عليها نكسة

(١، ٢، ٣، ٤) من أحاديث محمدية.

أو ارتداداً ، لأنها تكون نابعة من عقائدنا الراسخة التى نحرص عليها حرصنا على الحياة وبدونها لا نستسيغ العيش المادى مهما كان فيه من رفاهية .

والشريعة الإسلامية تنمى فى نفس كل فرد الشعور بالمسئولية الجماعية وتربّيه على أن يحيا فى المجتمع بنوع من المشاركة العملية كنتيجة للمشاركة الوجدانية حتى تزيل أو تخفف حدة غرائز الأنانية والفردية والأثرة ، وليكون مثل المجتمع كمثل الجسد الواحد : بين أعضائه من المودة والترابط والتراحم والتعاطف ما يجعله يشعر بالوحدة الحقيقية . . . ولا شك أن هذا الاتجاه هو أساس الاشتراكية المعقولة التى تسمو بالإنسانية وتوطد بناء الحياة الاجتماعية وتحمى الأمة من عوامل الهدم والتفكك وحرب الطبقات وعواقب التفاوت الفاحش فى مستويات حياة الأفراد .

ولا شك كذلك أن هذا الاتجاه هو التطبيق العملى للدعوات الدينية والفلسفية السامية التى مضت فى الدهور الطوال تبشر بالمساواة وتدعو إلى الرحمة والتعاطف والمشاركة الوجدانية والمادية بين الناس .

وما دامت الاشتراكية تستهدف القضاء على التفاوت الفاحش بين الناس فى مستويات المعيشة المادية والأدبية ، فإنها لا شك ستقضى على أكثر أسباب الجرائم التى تقوض بناء المجتمعات من قديم وتجعل حياة البشر لا تفترق كثيراً عن حياة الوحوش فى الغابات والفلوات ، إذ أن القانون الذى يحكم الحياة فى الغابة هو الفردية والأنانية التى تدفع للعدوان ، للاستئثار بضروريات الحياة مع التربص للصراع والقتل هجوماً أو دفاعاً لتوفير القوت والأمن الخاص فى حدود ضيقة وفى تهديد مستمر بالأخطار والأهوال .

وإن أكثر بواعث الجرائم فى المجتمعات هو التفاوت الفاحش بين مستويات الحياة الأدبية والمادية ، وإن الفقر والجهل والمرض والطغيان والعدوان والاغتصاب والسرقة والاختلاس والسخط والتبرم والكفر بالحياة وبالإيمان ، وغير أولئك من عوامل الهدم وظواهر الصراع والفساد ، إنما هى أعراض ونتائج لجريمة الجرائم ، وهى التفاوت الفاحش بين الناس فى مستويات حياتهم مما يجعل بعض الناس ، وهو القلة يحقق كل رغباته وأسباب الترف فى حياته ، ويحار كيف يصرف الزائد الكثير فى ألوان لذاته المحرمة وغير المحرمة ، وتمضى حياته مع الترف والسرف وبوار التبطل وفساد

الفراغ . . . بينما البعض الآخر ، وهو الكثرة ، يحار كيف يحصل بشق الأنفس على قوته وقوت أهله بعد الكدح والتعب ، وكيف يدبر أمر كسائهم وسكنهم وتعليمهم وتطبيبهم ، مما يجعل الحياة الدنيا لديهم موصولة الشقاء ، لا يكادون يرون فيها رحمة الله التى ما خلقوا وأدخلوا رحاب الدنيا إلا لرؤيتها والاستمتاع بآثارها ، ولكن جرائم التفاوت الفاحش فى مستويات الحياة هى التى حالت بينهم وبين ذلك .

وقد كان رواد الدعوات الدينية والإنسانية والفلسفية السامية ، مُثُلا ونماذج لتطبيق التكافل الاجتماعى فى المحيط الذى عاشوا فيه ، فلم يكن أحدهم يستأثر وحده بشىء من المصالح العامة أو الخاصة ، وإنما كانوا أول من يدعو وأول من ينفذ المبادىء الإنسانية ، فضربوا للناس المُثل وأقاموا القدوة وجسموا المبادىء فى نماذج رفيعة للحياة الطيبة فى ظلال التكافل .

فينبغى لنا جميعًا الآن ، دعاة ومدعوين ، حاكمين ومحكومين ، أن نلاحظ العدالة والرفق والقدوة الطيبة فى تطبيق النظم الاشتراكية ، وأن نتذكر دائمًا أن ضرب المثل الحسن فى تطبيق شريعة العدل والرحمة هو أول ما يدخل فى أذهان الجماهير وقلوبهم من دلائل صدق هذه الشريعة ومسايرتها للمصالح العامة والخاصة ، وأعظم ما يدفعهم إلى الإيمان بها وحمايتها من النكسات والارتداد .

وذلك التطبيق لشريعة العدل والبر العام على الجميع ، يسير على مقتضى الحكمة الواجبة على الداعى حتى يصدق الناس دعوته ، كما فى قول القرآن حكاية لقول أحد دعاة الإيمان والإصلاح « وما أُريدُ أن أُخَالِفكُمْ إلى ما أنهاكم عنه ، إن أُريدُ إلا الإصلاح ما استطعتُ »

وليس من شك فى أن الحياة الاشتراكية المعقولة التى تحتفظ لكل فرد بحريته ومسئوليته الخاصة ، وبقوام غرائزه الدافعة إلى الإنتاج والتثمير والتعمير مع تهذيبها وقمع جشعها ، إنما هى تطور كبير وعظيم إلى المجتمع الأفضل الذى تقل فيه جرائم التفاوت الفاحش ، ونحو الحياة الطيبة التى تسمح للطمأنينة والسعادة النسبية أن تغمُرَ نفوس أكبر عدد من الناس فيروا من خلالها رحمة الله ووجه الحق ومنطقة البر والسمو فى طبيعة الإنسان .

وينبغى أن نتذكر دائمًا أن المعانى الإنسانية هى بواعث النظم والقوانين التى تَسُنُّها الدولة ،وليس الحقد أو الانتقام بين الطبقات هو الباعث . . . بل العكس صحيح ، وهو أن سن هذه القوانين والنظم إنما يكون لمنع الأحقاد والصراع بين الطبقات، وخاصة فى المجتمع الصناعى، الذى تكثر فيه ظواهر حرب الطبقات فى صورة مفزعة . . .

كما يجب أن نعلم أن آفة الشرائع هى سوء تطبيقها من جهة ، وعدمُ توفير الجو النفسى والمشاركة الوجدانية التى تجعل النفوس تتقبلها بثقة وتتلقاها برغبة وتذوق لما فيها من معان إنسانية ، ولا تقع فى الخلط بين صحة الاتجاه فيها وبين بعض الظروف والملابسات العارضة التى قد تؤثر فى النتائج بالإبطاء أو التخلف أو الانحراف .

ولنحرص على حسن تطبيق نظمنا فى جو نفسى وحضانة خلقية تحقق ما تهدف إليه من معان إنسانية سامية .

ولنستحضر فى تطبيقها روح العبادة التى نستحضرها فى الزكاة والصدقات التى يفرضها الدين طهرة للنفس من الشح ، وبرًّا ويسراً بالإنسانية المعذبة فى الأرض .

ب- المشاركة العملية أو التكافل الاجتماعى

المشاركة العملية أو التكافل الاجتماعى ثمرة عظيمة من ثمرات الشعور بالمسئولية العامة والمشاركة الوجدانية التى تجب على كل فرد فى المجتمع نحو الأفراد الآخرين . . . وهو روح النظام العام الشامل الذى ينتظم حياة المجتمع الإسلامى فى جميع قطاعاته .

فهو فى قطاع تربية الفرد وسلوكه نحو نفسه ونحو مجتمعه ، وتربية الجماعة وسلوكها نحو الفرد ونحو نفسها ونحو الإنسانية .

وهو فى قطاع السياسة والحكم وتحمل مسئوليات الولاية والرعاية والوظيفة والعمل ومزاولة المبادئ الأساسية فى الحياة السياسية والمدنية ، كالحرية والكرامة والعدالة القضائية والعدالة الاجتماعية ، والديمقراطية والشورى وتكافؤ فرص الحياة السياسية أمام الجميع .

وهو فى قطاع الاقتصاد وتدبير المال وتنميته وصرفه وإنفاقه وإجراء المعاملات والارتفاقات والتعاون على استغلال موارد الثروة الطبيعية ووضعها على السواء أمام الجميع ، وفى احترام حق العمل وتيسيره واعتباره رأس مال .

فى جميع هذه القطاعات الحيوية يجب فى رأى الإسلام أن يسرى روح التكافل الاجتماعى . وكل وجه من وجوه التربية والسياسة والتوجيه والوظيفة والعمل والاقتصاد يجب أن يكون تطبيقاً للتكافل الاجتماعى لتستكمل هذه الوجوه الروح والصورة معا .

والواقع أن التكافل الاجتماعى هو الامتداد الطبيعى للمسئولية المباشرة فى محيط الأسرة ، ويحرص الإسلام على تنمية الشعور بهذا الامتداد ليسبغ على المجتمع الكبير فى المدينة أو الوطن كله صورة الأسرة بمعناها الطبيعى الدقيق .

وتتضح شدة الاحتياج إلى روح التكافل الاجتماعى فى المجتمعات القبلية البدائية التى لا تعيش فى ظل قوانين مسطورة وتنظيم مدنى معقد ، وإنما تعيش فى ظل التقاليد والضرورات الاجتماعية البسيطة التى تحمل الأفراد على تكوين مجتمع للاحتماء بقوته ضد الأخطار المحققة فى تلك البيئات البدائية المنقطعة .

فالتكافل الاجتماعى فى تلك البيئات هو سبب بقائها ، ولولاه لفنيت .

وقد أقيم المجتمع الإسلامى على أساس بناء الأسرة والروابط الفطرية التى بين أفرادها ومسئوليات كل منهم نحو الآخرين ؛ فالمؤمنون فى مجتمعهم إخوة ، وكل أخ مسئول بالطبع عن أخيه كافلٌ له ، ومتضامن معه فى السراء والضراء . وهم جميعاً يمثلون جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء ، وكلهم راع لغيره مسئول عنه ، يرى أنه جزء من كل يكمله ويكتمل به ، ويحميه ويحتمى فيه ، ويعطيه ويأخذ منه ؛ فالأمير يرعى المأمورين ، والمأمورون يرعون الأمير ويرعون أنفسهم فيما بينهم ، والخادم يرعى سيده كما يرعى السيد الخادم .

هكذا وجههم القرآن والحديث النبوى المحمدى ، فينشأ ناشئهم وفى ذهنه صورة مطبوعة واضحة لمسئوليته وتبعته إزاء مجتمعه ، منتزعة من ذلك التقرير القرآنى وهذا التصوير النبوى للأخوة وطبيعة العلاقات الاجتماعية بين أعضاء المجتمع الإسلامى ، وهو يعلم أنه مسئول أمام الله عن تطبيق هذه الصورة فى حياته مسئولية كاملة لا مفر منها ولا اعتذار يقبل عن التقصير فيها .

جـ - المسئولية التضامنية والقيادة الجماعية

كلما تأمل المفكر المنصف فى صورة المجتمع الإسلامى الأول وتجاربه ، يؤمن بأن الكمال الذى وضعه الله فى الإسلام وأشار إليه القرآن بقوله : (اليومَ أكملتُ لكم دِينَكُم وأتممتُ عليكم نعْمَتى وَرضِيتُ لكم الإسْلام ديناً) كمال فى كل اتجاه من وجهات الحياة : فى العقيدة والشريعة والأخلاق والسياسة والاقتصاد .

ومعالم هذا الكمال يلمحها الذهن دائمًا وإن كانت بغير عنوان أو مصطلح من المصطلحات الفنية التى يضعها المتخصصون والفقهاء فى كل عصر .

ولا شك أن أعظم ضمانات الحياة الديمقراطية الاشتراكية ما يسمى الآن « المسئولية التضامنية » وما ينبثق عنها من « القيادة الجماعية» وهما من وسائل التربية السياسية والتوجيه والنصح والترشيد ، لأنها تأبى أن تجمع الوصاية والمسئولية عن المجتمع فى يد فرد أو جماعة محدودة يستأثرون بها ويستبدون ، وإنما تجعلها مسئولية عامة بين الجماهير وموجهيها وقادتها ، يتعاونون عليها ويحملونها جميعاً بحيث» إذا غاب منهم واحد سد غيره مكانه ، فلا يحدث فى بنائهم خلل ، وبحيث يكون التفاعل دائمًا بين الجماهير والقادة ، وبذلك تؤمّن وسائل تجلية رأى الشعب وسير الحكم بمقتضاه معصومًا من جموح الفرد .

وكلما تقاربت مستويات الحياة بين الأفراد سياسيًّا واقتصاديًّا استقرت مراسم القيادة الجماعية ، وسهل الأخذ بها ، فنما الضمان العام للحريات واستعلان رأى الجماهير .

وإذا كان المجتمع الإسلامي الأول وهو فى ظل حياة محمد رسول الله المؤيد بالوحى الذى يهدى كل رأى ويرشد إلى التى هى أقوم فى كل أمر بتوجيه الله ، ويلقى الضوء الكاشف من نوره وبلسان قرآنه على كل مشكلة أو مسألة من مسائل الحياة . . . أقول إذا كان هذا المجتمع قد رباه الله ووجهه على أن يكون الأمر فيه شورى حتى بين الرسول والمؤمنين . . . فلا شك أن غيره من المجتمعات التى

تأتى بعده هى أشد حاجة إلى أن يكون الأمر بينها شورى، وبالتالى تكون المسئولية تضامنية والقيادة جماعية ، حتى لا تضل بالرأى الفرد والحكم المستبد غير المستمد من الجماعة .

وتحمل المسئولية العامة هو أعظم ما يربى الشخصية الفردية ويؤهلها للخلافة فى الأرض ، كل فى دائرة حياته حتى ولو ضاقت وصغرت .

والقيادة الجماعية مسئولية تضامنية بين القادة والموجهين ، وهى مستمدة من كل فرد فى الجماعة ، وليس أبدع فى بيان هذه المسئولية المتبادلة مما قرره الرسول من أن كل فرد فى المجتمع راع والكل مسئول عن رعيته ، فالأمير راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم فى دار سيده راع ومسئول عن رعيته .

وصفوة القول : إن المسئولية التضامنية بين الأفراد والقيادة الجماعية المنبثقة منها هى أهم الأدوات العملية لتحقيق معنى الديمقراطية السياسية والاجتماعية بمفهومها الإسلامى ومفهومها العصرى .

وكل قطاع من قطاعات التنظيمات الشعبية كالتنظيمات التعاونية والنقابات لا يستطيع أن يقوم بدوره المؤثر الفعال فى التمكين للديمقراطية والاشتراكية إلا بالمسئولية التضامنية والقيادات الجماعية الواعية التى تتفاعل مع جماهيرها تفاعلا مباشراً يجعل حركة حياتها كلها فى نبض واحد وتناسق تام بعيد عن التعارض والتناقض .

وإن الإسلام ليبارك إرساء نظم المسئولية التضامنية والقيادة الجماعية فى مجتمعنا الحديد على أصول راسخة من تعاليمه التى امتازت بالدعوة إلى الشعور بتلك المسئولية والحرص على الجماعة وتحكيم مصلحتها أولا قبل المصالح الفردية الضيقة ، وإلى عدم الشرود عنها حتى لا تتفرق بالجميع السبل فتأ كلهم ذئاب الطريق التى لا تستطيع أن تأكل إلا الشاردين المنفردين

و « يد الله مع الجماعة » دائمًا . . .

- الحرية المتكاملة للفرد

إن الحرية السياسية والحرية الاقتصادية هما أساس الحياة الاجتماعية الجديرة بأن تعاش، وهما المطلب الأول للجماعات والأفراد ليصححوا ذواتهم ويشعروا بكيانهم وينطلقوا إلى كل اتجاه فى رحاب الحياة الواسعة المتجددة . فإذا لم تتحقق الحرية بنوعيها لم يتحقق أى وجود شريف كريم .

وقد مضى التاريخ مطرداً بنشوء المجتمعات ونموها وازدهارها على هذا الأساس من تحقيق الحرية أولا ثم اتخاذها ركيزة انطلاق إلى كل ثورة وكل دعوة لتحقيق الحياة الكريمة العزيزة .

وفى حياة أمتنا نحن المثال والشاهد القريب الذى يوضح لنا هذه الحقيقة الأساسية ؛ فقد مضت تجاهد من أجل هذا المطلب الأول مطلب الحرية السياسية والاستقلال اثنين وسبعين عاما بذلت فيها من الدماء والجهود المتوالية لتحقيق الحرية باعتبارها القيمة الأولى الأساسية، للحياة ولم ترض تلك الحقبة الطويلة من سنى الكفاح أن يشغلها أو يعوقها أى شاغل أو معوق من مطالب الحقوق الأخرى ، ولم تنطلق منها أية ثورة اجتماعية قبل أن تمضى ثورتها من أجل الحرية السياسية إلى غايتها وتحقق أهدافها . فلما حققت الثورات من أجل الحرية أهدافها سنة ١٩٥٤ بجلاء قوات الاحتلال البريطانى انبثقت الثورة الاجتماعية ومضت غير متعثرة، فى طريق ممهد .

نعم كانت هناك فترة قصيرة من ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى يوم الجلاء سنة ١٩٥٤ ازدوج فيها الكفاح من أجل الحرية السياسية بالكفاح لبدء الثورة الاجتماعية بالقضاء على التفاوت الفاحش، وتحقيق الإصلاح الزراعى ، وتوزيع الأرض على الفلاحين المعدمين ، ولكن معالم الكفاح حتى فى هذه الفترة القصيرة تتضح أكثر فى الكفاح من أجل الحرية السياسية وتصحيح قيمها فى حياتنا أولا .

وطبيعى أن الاحتلال البريطانى ما كان ليسمح بقيام الثورات الاجتماعية حتى ولو ليشغلنا ويلهينا بها عن الثورة من أجل إجلائه عن ديارنا ، لأن الاحتلال

كان يعمل على أن تكون الفائدة الأولى من وجوده فى ديارنا هى أولا : اغتصاب ثمار حياتنا الاقتصادية وسلبها وتحطيم القيم الاجتماعية المترتبة على تملكنا هذه الثمار ، معتمداً فى ذلك على عملائه من الاستغلاليين والاحتكاريين الذين اتخذهم الركائز الأساسية لحكمه واحتلاله هذه الديار . ومتى تحطمت القيم الاجتماعية للأفراد وصاروا أسرى للأرض وللمستغلين ، ذلوا وضاعوا وغفلوا عن المطالبة بالحرية والاستقلال ، واستكانوا للقيود السياسية ، وخصوصاً إذا كانت الأمية الأبجدية والعقلية فاشية فيهم بدرجة عالية كما كان الحال فى عهد الاحتلال .

وحتى بعد زوال الاحتلال وتحطم الملكيات الكبرى والاستغلال والاحتكار وبناء الدولة بناء اشتراكياً بتأميم وسائل الإنتاج والتمكين لتكافؤ الفرص بين المواطنين ، يشعر وطننا شعوراً يقظاً بضرورة المحافظة على الحرية السياسية ومكاسبها من الأخطار الكثيرة التى تهددنا ، باعتبار هذه الحرية سياجاً للمكاسب لاقتصادية والثورة الاجتماعية ؛ ولذلك ما فتىء وطننا يخوض معارك تثبيت الاستقلال ومقاومة الاستعمار الجديد المتخفى وراء الأحلاف ومناطق النفوذ ، سواء أكانت هذه المعارك فى ديارنا أم ديار اشقائنا العرب ، أم ديار حلفائنا وأصدقائنا من معتنقى مبادئ الحياد الإيجابى وعدم الانحياز ، تلك المبادئ التى جنبت العالم فى ظروف كثيرة مزالق الانحدار إلى حافة هاوية الحرب الذرية التى فيها لا شك فناء أمم الأرض جميعاً غالبين ومغلوبين ، إن كان هناك غداة انتهائها غالبون . . .

ولقد آمن وطننا بالحرية السياسية وما وراءها من الحرية الاجتماعية لنفسه وغيره ؛ ووقف فى صفوف أنصارها فى المجال الدولى فى كل ظرف وفى كل مكان ، وجعل من ذلك الإيمان رسالة يبشر بها ويعمل لها صادراً فى ذلك عن تجاربه السياسية وإيمانه الدينى الذى ينادى بمبادئ الحرية والسلام والعدالة والاستعداد الدائم للكفاح فى سبيلها .

ويعلم أعداؤنا وخاصة الصهيونيين منهم أن الصراع الحقيقى بيننا وبينهم على امتلاك أرضنا العربية ، وعلى فلسطين بصفة خاصة ، يدور فى ميادين صراعنا من أجل تصحيح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للأفراد وزيادة الإنتاج

ومسايرة ركب الحضارة والعلم الذى يجرى بالناس ، وهم لذلك يشعرون بالأخطار تحيط بآمالهم الخبيثة فى تحقيق مُلْكهم الكبير على أرضنا العربية كلما رأوا أى قطر عربى يثور أو يحارب فى سبيل بناء حريته السياسية والاجتماعية ، لأنهم ما جاءوا لغزو فلسطين إلا على حساب استمرارنا فى غفلتنا وتخلفنا السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، وكلما رأوا شعبًا عربيًّا يستيقظ ليكافح ويحرر نفسه سياسيًّا واقتصاديًّا شعروا بمطارق الخطر تدق رؤوسهم وتسحق قلوبهم وتحطم آمالهم .

والواقع أننا فى حاجة ماسة إلى استحضار هذه النظرة اليقظة دائمًا فى جميع ميادين معاركنا العربية فى الوقت الحاضر ، إلى أن يأذن الله بزوال إسرائيل وما وراءها من أحلام الصهيونية ؛ لأن هذه النظرة الثاقبة هى مفتاح استعدادنا لكسب جميع معاركنا ضد أعدائنا وضد شرور أنفسنا وضعفها وتفرقها وعجزها عن رؤية الخطر الحقيقى ، وانصرافها عنه إلى أخطار موهومة تجسمها الأخيلة المريضة والقلوب العمياء .

هـ- كرامة الفرد وسلطة الدولة

تستمد الجماعات الإنسانية كرامتها وحقوقها وسلامتها من كرامات أفرادها وحقوقهم ، فالجماعة التى ليس لأفرادها كرامة مصونة وحقوق مقررة محترمة ، هى جماعة يسودها السخط والتفرق وتفشو فيها خواطر الأنانية والميل إلى الانعزالية والسلبية والتمرد ويذوق بعضها بأس بعض .

وحقوق الأفراد وكراماتهم ، تستمد أصالتها من أصالة الحياة نفسها ، لأن الناس يستمدون هذه الحقوق مع طبيعة الحياة ذاتها ويعرفونها من مذاقها .

فمنذ أن يأخذوا هبة الحياة من واهبها يأخذون معها حقوقها الكاملة التى تخولهم أن يحيوها طيبين ويتمتعوا بها متاعاً حسناً إلى نهايتها .

وأول حق يثبت لهم فى رأى الإسلام بعد أن ينالوا هبة الحياة هو حق حفظها وصيانتها من الاعتداء والاغتيال ، فلا يباح لأية قوة أن تعتدى على حياة أحد ولا أن تحرمه منها إلا بحق آخر . . . فإذا اعتدى إنسان على حياة آخر أو حرمه منها بغير حق يكون قد اعتدى أو سلب حياة الناس جميعاً ، وعصى إرادة واهب الحياة فى إيجاد نفس من العدم ، وصار قوة من قوى التدمير والتخريب لمخلوقات الله . تستحق غضبه ولعنه . . .

يوضع هذا المعنى قول القرآن :(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا على بَنى إسرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بغير نَفْسٍ أو فَسادٍ فى الأَرض فكأَنَّمَا قَتَلَ الناسَ جميعاً ، ومن أحياها فكأَنَّمَا أَحيَا الناسَ جميعاً . .)

وفى العبارة الأخيرة من هذا القول العظيم توضيح لمعنى عظيم ، هو أن من يحفظ شعلة الحياة فى الأحياء ويزيدها ازدهاراً ونماء يكون قوة من قوى التكوين والبركة والنماء التى أوجدها الله لتنمو بها الحياة . . .

وثانى حق يثبت للفرد بعد ثبوت حق استمرار حياته وحفظها هو حق الحرية ،

لأن الحياة فى جوهرها حرية . . . حرية من قيود الموت والجمود ، وحركة وانطلاق مع تيار الوجود فى كل اتجاه . . .

وحق الحرية هو أساس لجميع الحقوق الأخرى المدنية والسياسية والاقتصادية . . ولا كرامة ولا طعم لحياة بدون حرية . . . ومن يسلب الناس حريتهم فكأنما سلبهم حياتهم . . . وقد وقر فى قلوب الناس وعقولهم عشق الحرية والدفاع عنها تفديتها حتى بالحياة نفسها . . . إدراكاً منهم أنه لا قيمة لحياة بدون حرية .

وقد أعلنها الإسلام صريحة حينما حرر الفرد من عبادة ما سوى الله الخالق ، وحين خاطب كل فرد خطاباً مباشراً بدون وساطة ، وألقى عليه مسئولية نفسه وتبعات حياته ؛ إذ لا مسئولية بدون حرية ، وحين عرض عليه أمانة الوجود فحملها وعلم أنه لم يخلق عبثاً ولم يترك سدى ، وأنه (كلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِين) (وكلُّهم آتيهِ يوم القيامة فردًا) ، (يوم تأْتى كل نفس تجادل عن نفسها) ، (إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولا) .

وفى هذه المبادئ القرآنية بيان عميق المآخذ بعيد الصدى فى تقرير حق الحرية وتثبيته وتشعيعه فى كل أفق من آفاق الحياة ، وذلك سبق مبكر جداً قبل هذا العصر إلى تقرير حريات الفكر والعلم والاعتقاد والقول والتملك والتصرف واختيار نظم الحكم التى يعيش فى ظلها الفرد مع جماعة ما ، لضمان المساواة وتكافؤ الفرص أمام الجميع ، وتأمين الحماية لدمائهم وأعراضهم وأموالهم وكفالة الحد اللازم لمعيشتهم عيش الكرامة والحرية . . .

وقيام دولة على هذه الأسس يعنى أنها دولة ديمقراطية اشتراكية بلغة العصر ، إذ يضمن فيها للفرد حقه فى الحرية والكرامة فى الحدود التى تكفل حقوق غيره ، بحيث يتنازل كل فرد عن جزء من حريته السياسية والاقتصادية ، لا مفر من التنازل عنه ، ليضمن مصلحة أعظم لنفسه ولغيره .

والاشتراكية كما يشير اسمها تعنى المشاركة من جميع أفراد المجتمع فى وضع الجزء المتنازل عنه من حريات الجميع السياسية والمالية تحت تصرف الدولة أو الهيئة التى تُختار من الجميع لتمثل الجميع . .

وتتفاوت أنواع الاشتراكية بمقدار تفاوت القدر المتنازل عنه للدولة من الحريات

وكلما كان ذلك القدر أبعد عن محو شخصية الفرد ومسئوليته كان ذلك أقرب إلى الوضع الطبيعى الذى خلق عليه قبل إندماجه فى المجتمع .

وبعض المذاهب الاشتراكية يدمج الفرد فى الدولة إدماجاً تاماً لا تبدو فيه ملامح شخصيته المستقلة ، ويستعبده لها ، فلا إرادة له ولا ملكية خاصة ولا حرية له فى نقد الدولة ، وذلك كله من أجل ما يصل إليه عن طريقها من الحماية والكفاية لحياته.

وفى هذا غلو فاحش وإهدار لقيمة الفرد الإنسانى ومسئولياته والخصائص المميزة لشخصيته ، ونزول به نحو حضيض حياة الحيوان الذى يسير مع القطيع بدون تفكير وإرادة ، وتتماثل فيه الأفراد تماثلا تاماً ، فهو واحد مكرر فى الملايين ، ولا ميزة لفرد على فرد ، كالغراب والغراب والغزال والغزال ، والحوت والحوت ، والحشرة والحشرة .

وقد نأى الإسلام بدولته وأفرادها عن مثل هذا الغلو وعن مقتضياته وآثاره ، فجعل الاشتراكية غير مفروضة ابتداءً من الدولة على الأفراد ، بل نابعة ومنبثقة من ضمير الفرد ، فخاطب النفس الفردية فى وجوب الإيمان بالعدالة والتكافل الاجتماعى قبل أن يخاطب الدولة ، ودعا الأفراد أن يحدوا باقتناعهم واختيارهم من حرياتهم الطبيعية فى القول والعمل والتملك ، على مقتضى مصلحة الجميع .

وقد درجت الدولة العربية الإسلامية الأولى فى مهد رحب من الحرية المطلقة التى لم تكن تعرف قيود القوانين والنظم المسطورة فى السياسة والاقتصاد ، ونشأت نظمها وقوانينها السياسية والاقتصادية فى ظل تلك الحرية الفردية ، بعد أن تنازل الأفراد عن جوانب منها اقتناعاً واستجابة للدعوة الالهية التى دعتهم لما يحييهم فلبوا طائعين من غير جبرية ولا سيطرة حتى من رسول الدعوة ، كما بين له القرآن فى مثل قوله : (لستَ عليهم بمسيطر) (وما أنتَ عليهم بجبّار) ، (إن عليك إلا البلاغُ) (لا إكراهَ فى الدِّين) .

وقد أكدت الشريعة الإسلامية للأفراد مبدأ الحرية المطلقة فى أصل الفطرة حينما وضعت لهم تلك القاعدة الأصولية ، وهى أن الأصل فى كل شىء هو الإباحة ، ولا يحرّم وتمنع عنه النفس أو يحد من حريتها فى تناوله إلا من ضرر فيه يلحق بالنفس أو ضرار بالغير .

وقد جعلت الشريعة الإسلامية سيادة الدولة على أفرادها مزيجًا من شريعة الله وإرادة الشعب الممثلة فى أهل الحل والعقد ، وإرادة القائم على الحكم ، وقررت أن الأنفس والأموال هى ملك لله واهب الحياة استودعنا إياها وخولنا التصرف فيها بالوكالة عنه وجعل حرية ذلك التصرف مقيدة بقيود من مسئولية الجميع عن الجميع .

وفى هذا أساس مكين للاشتراكية التى لا تذيب شخصيات الأفراد ولا تذهب بحرياتهم .

د - الحضانة الخلقية للنظم والمبادئ

لا شك أننا بالتجربة الاشتراكية التى نعيشها قد دخلنا طوراً جديداً يحتاج منا إلى وعى وإدراك لأسسه ومقوماته التى تجعله ينتج النتائج المرجوة منه .

وأول أنواع هذا الوعى أن نعلم أن المجتمعات الاشتراكية هى أحوج المجتمعات إلى قيام بنائها على الأسس الخلقية التى تؤخذ من المثل الدينية العليا ومن وازع الضمير الإنسانى السامى الدقيق اليقظ .

ذلك لأن الاشتراكية السياسية والاقتصادية لن يكون بناؤهما سليماً وطيد الأركان إلا إذا أقيم على الاقتناع بضرورة التنازل عن كثير من المصالح الفردية والمنافع الشخصية فى سبيل تحقيق مصلحة المجتمع ، وهذا الاقتناع يحتاج إلى فهم وتذوق خلقى للعلاقات الإنسانية الواجب توافرها فى أفراد المجتمع ، وهذا الفهم الخلقى يحتاج إلى قوة دافعة من العقائد الإنسانية السامية التى تنبع من المثل العليا التى رسمتها أديان الحق والخير والصلاح والإيمان بالإنسانية الواحدة وبوصايا الله بشأنها .

بل إن الاشتراكية فى حد ذاتها يجب أن تُعَلَّم على أنها مذهب خلقى قبل أن تكون مذهبا سياسيًّا أو اقتصاديًّا ، ويجب أن تطبق بالاقتناع الوجدانى قبل أن تطبق بالنظم والقوانين ، فتنبع من الشعور النفسى النبيل المتبادل بين أفراد الجماعة ، شعور أعضاء الجسم الواحد ، أو شعور الإخوة فى الأسرة الواحدة ، يكفل بعضهم بعضًا ، ويسعى بعضهم لبعض سعى الخير ، ويعملون جميعاً بروح الجماعة وبالقيادة الجماعية ، ويبنون ثرواتهم الخاصة فى الحدود التى ارتضتها الجماعة لمنع الطغيان ، وفى غير جشع ولا اغتيال ولا اختلاس ، كما يبنون ثروات أمتهم بالإنتاج الدائب المثمر عن سواعد الجد فى ظل العواطف والأفكار التى تؤمن بجلب الخير للجميع وبدفع الشر عن الجميع وبوحدة مصير الجميع .

وما لم يقم المجتمع الاشتراكى الجديد على هذه المفاهيم الخلقية فإن نظمه وقوانينه لن تكتمل له الدوام والاستمرار . . .

والمفاهيم الخلقية لن تثبت مضامينها وتتوحد فى قلوب الجميع إلا إذا استندت إلى المثل الأعلى فى الدين ، لأن الدين هو سند الأخلاق وحارسها وحافظها من أن تضعف أو تنهار فى ساعات الضعف البشرى عند الأزمات والمشكلات والامتحانات .

ومن طبيعة الدين أنه يجعل على كل مؤمن رقيباً من نفسه ومن ربه ، يحرسه من نزعاتها التى تدعوه دائماً إلى الفردية والأنانية التى لا تعمل للجماعة ولا ترى غير ذاتها .

وقد اعترف « ميثاق العمل الوطنى » بالدين والإيمان ، لأن المنطقة العربية والإسلامية التى جعلها الله منطقة الأمة الوسط ، لا تستطيع أن تعيش إلا فى ظل الإيمان بالدين والأخلاق والنظم المنبثقة من الدين . وقد نشأت حضاراتها ونمت فى ظلال الدين والإيمان ولا يمكن أن تنقاد طائعة مختارة لأى نظام إلا فى ظلال الدين .

ومن حسن حظ مجتمعنا الماضى ومجتمعنا المعاصر أن العدالة الاجتماعية والكفالة الاجتماعية والأخوة الإنسانية شعارات ندين بها ونعتقدها وتنمو عليها أخلاقنا من قديم . . .

ولو أن المذاهب الاشتراكية المعاصرة فى البلاد الأخرى سلكت إلى شعوبها عن طريق الإيمان بالله رب الجميع ، الداعى إلى التراحم بين الناس ، والجاعل حدوده هى حدود معاملات خلقه بعضهم مع بعض ، فهو « ثالث الشريكين » والمتعاقد الثالث مع كل متعاقدين ، وهو مع كل مريض يعوده عائد ، ومع كل محكوم يحكمه حاكم ، ومع كل فقير أو عاجز أو مستضعف : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا » . . .

أقول : لو أن مذاهب العدالة والإنصاف والاشتراكية وتخفيف الفوارق بين الطبقات ، تسلك إلى الجماعات فى كنف الدعوة للإيمان بالله رب الرحمة والعدالة ، لاختزلت خطوات وجهود كثيرة بذلت فى تلك السبيل .

فإلى الشعور بالمشاركة الوجدانية والعملية بين جميع الأفراد والهيئات فى ظلال المثل العليا الدينية فى مجتمعنا . . .

وإلى الأمانة الكاملة على حدود المشاعر النفسية وحدود الأعمال وحدود المعاملات باعتبارها حدود الله التى كثيراً ما أوصانا ألا نعتدى عليها . . .

وإلى ترويض النفس على ترك الجشع والطمع وحب الاستغلال وحب الترف . . .

وإلى الإخلاص فى العمل ومضاعفة الإنتاج لتكون وراء ذلك الكفاية للجميع وسد احتياجات الجميع . . .

وإلى عشق المساواة والحرية والشورى وتفدية ذلك الثالوث بكل عزيز ونفيس من المال والدم . . .

وإلى الحراسة اليقظة على مصالح الشعب فى المزرعة والمصنع والمتجر والمعمل والدوائر الحكومية والمؤسسات ، لأنها ملك للوطن ، والوطنُ مِلك الجميع . . .

وإلى الصراحة فى مواجهة الأخطاء وتصحيحها فى كل تجربة من تجارب العمل والسلوك . . .

وإلى النقد الذاتى ومحاسبة النفس . . .

وليكن شعار الجميع القول المأثور :

« أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِك ».

وتلك هى الحضانة الخلقية لمبادئ مجتمعنا الجديد .

المال فى موازين الإسلام

المال قوة من القوى الكبرى للأفراد والشعوب ، يقيم حياتها ويسد احتياجها وتصرّف به شئونها الخاصة والعامة . وتصنع به أدوات عزها وتمكينها وحضارتها وثقافتها ومتاعها ، وتدافع به عن نفسها بإعداد السلاح والعتاد والحصون ، وتتسع به إمكانياتها وقدرتها على معالجة الأمور وتعمّق الحياة ، وترى به وجوها للدنيا لا تراها إلا فى ظلاله .

فهو أحد زينتى الدنيا كما فى قول القرآن : (المال والبَنُون زِينةُ الحياةِ الدنيا) بل جعله القرآن قوام الحياة الإنسانية ، ونهى عن تمكين سيئ التصرف من حيازته حتى لا يضيعوه بسفههم وسوء تصرفهم فقال (ولا تُؤْتُوا السفهاءَ أموالَكُم التى جَعَل الله لكم قياماً)

والمال هو ما يملكه الإنسان منفصلا عن ذاته ، وقد جعله الله للإنسان وقاية وحفظاً ومتاعاً . وسماه القرآن خيراً فقال

(وإنه لِحُبِّ الخير لَشديدٌ) أى وإنه لشديد الحب للمال ، وقال :

(كُتِبَ عليكم إذا حضر أحدَكُم الموتُ إنْ ترك خَيْرًا الوصيَّةُ للوالدين والأقربين) أى إن ترك مالا ، ومدحه محمد رسول الله فقال : « نِعْمَ المالُ الصالح للرجل الصالح ! » وامتن الله به على الناس جزاء على احسانهم . فقال :

(ويُمْدِدْكم بأموال وبنين ويجعلْ لكم جناتٍ ويجعلْ لكم أنهارًا)

ولما كان الإنسان واسع الآمال متعدد آفاق الحياة فقد سلحه الله بغزيرة حب التملك والاقتناء لكل ما ينفعه ويسد ضروراته ويفى بمتاعه هو وأولاده وذوى قرباه ، تأميناً لمستقبلهم وضماناً لتحقيق آمالهم .

غير أنه قد ينحرف بهذه الغريزة إلى الإفراط فيصل إلى البخل والشح ، أو إلى التفريط فيصل إلى الإسراف والتبذير ، ولذلك كان من هداية القرآن له أن أوصاه بالاعتدال بين الطرفين المتباعدين ، فقال :

(ولا تجعلْ يدَك مغلولةً الى عُنُقك ولا تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْط. فتَقْعُدَ مَلُوماً محسوراً) وقال فى وصف المؤمنين (والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَواماً) أى وكان إنفاقهم وسطاً معتدلا بين طرفى الإسراف والتقتير .

وقد صور فى الآية الأولى البخل على أنه تعطيل لليد كأنها مغلولة أى مربوطة إلى العنق ممنوعة عن أداء وظيفتها ، وصور الإسراف والتبذير على أنه تعطيل أيضاً لوظيفة من وظائف اليد لا تستطيع معه أن تمسك شيئاً ، فكل شىء يقع فيها هو إلى سقوط وضياع .

وذلك لأن البخل مهلك لمنفعة المال بتعطيله عن الدوران فى الأسواق وتداول الأيدى له لخدمة الصالح العام . . . وهو أيضاً مهلك لصاحب المال بالشح وتعلق النفس به تعلقاً يمنعها من كسب المكارم والمحامد ، وأداء واجبات المروءة ، مضافاً إلى حرمانه من كثير من طيبات الحياة التى يملك القدرة على التمتع بها وتذوق نعم الله فيها وتجديد نفسه بها .

والإسراف كذلك مهلك لقوة المال الحقيقية بانسيابه من يد المسرف بدون وعى وتقدير إلى غير مصارفه المستحقة وأماكن إنتاجه وتزايده ، ومهلك للمسرف يجلب الحسرة والندم لنفسه بعد أن تلحقه عواقب الإسراف من الفقر والذل والتعرض لنكباتهما .

وقد شدد القرآن فى النهى عن الإسراف فى إنفاق المال حتى ولو كان ذلك بالمغالاة فى إعطاء ذوى الحقوق فقال :

«وآتِ ذا القُربى حقَّه والمسكينَ وَابنَ السبيل ولا تبذِّر تبذِيرا . إن المبذِّرين كانوا إخوان الشياطينِ وكان الشيطان لربه كَفوراً »

لأن عاقبة التبذير دائماً واحدة ، هى انهيار الثروة التى بها قيام الحياة الكريمة ودون الأعراض الشريفة وسد الحاجات المتجددة للنفس والولد وذوى الحقوق المذكورين فى الآية أنفسهم . ولذلك قيل : « لا خير فى السَّرفَ » .

والمبذر كالشيطان فى عدم تقديره لما كان فيه من نعم الله فى الجنة وإسقاطه لمتاعها الدائم الذى كان فيه .

والمراد بالتبذير تفريق المال فيما لا ينبغي وإنفاقه على من لا يستحق وتضييعه بدون حساب، كما ترمى البذور الصالحة فى الأرض بدون تعهد .

والإنسان يسلك إلى تأمين مستقبله ومستقبل من يعولهم بادخار المال الفائض عن الاحتياجات الاجتماعية لأمثاله ، بدون انحراف إلى الاكتناز والتقصير عن أداء الواجبات الزمنية والدينية كالصدقات والزكوات . وقد قامت الحياة الاقتصادية فى هذا العصر على تنمية خلق الادخار عند الأفراد وتنظيم عملياته ؛ فمن المتجمع لديهم جميعاً تقوم الشركات والمؤسسات الاقتصادية التى تزيد إنتاج البلاد وثروتها ورخاءها، وتضمن فرص العمل لمن لا مال عنده تطبيقا للوصية الدينية الجامعة فى قول القرآن (وتعاونوا على البر والتقوى) وكل عمل نافع يندرج تحت كلمتى « البر والتقوى » .

ومن هنا كان الادخار بجانب كونه أمراً طبيعياً لتأمين النفس واقتصاد الدولة ، أمراً دينياً مطلوباً . وفى الحديث المحمدى : « ما عال من اقتصد » أى ما افتقر وصار عالة على غيره . وفيه أيضاً : «الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة ، والتدبير نصف المعيشة » ومن الحكم المأثورة قولهم : « التدبير مع الكفاف خير من الغنى مع الإسراف » .

وقد صار المال سلاحاً دولياً خطراً للسيطرة والتغلب ، ولذلك رأت الدول توجيهه والإشراف على تدبيره لخدمة الجماعة ، بتنظيم التوفير وإنشاء مؤسساته وضمانها وعقد قروض من الأفراد لتنفيذ المشروعات العامة .

والحرب الاقتصادية بين الدول حرب لا تهدأ فى الأسواق إذا هدأت الحرب بالسلاح والنار فى الميادين .. فالمال عصب الحياة وعنصر الصراع والهدف المختفى وراء أكثر الشئون . وقد رأينا كيف يسيطر بعض الأقوام القليلى العدد على العالم بالغزو الاقتصادى الخفى والظاهر .

وقد علمتنا الطبيعة التى فطر الله الكائنات الحية عليها ، الدرس الأول فى الادخار ، إذ جعلت فى أجسام النبات ،والحيوان والإنسان مخازن تختزن فيها الفائض من عصارات الحياة للانتفاع به وقت الضرورة والجفاف ، حتى لا تموت الأجسام الحية بانقطاع المدد فجأة عنها . فالماء فى النبات والشحم واللحم فى الحيوان والإنسان،

ما هى إلا مدخرات مخزونات لوقت الطوارئ يستطيع بها الكائن الحى أن يصبر على الجوع والعطش مدة ما حتى تنفرج أزمة المجاعة، وبعض الحيوان والحشرات كما نعلم يدخر الفائض من غذائه اليومى إلى يوم أو فصل آخر لا يتوافر فيه الغذاء أو الأمان .

وقد جعل الإسلام سلوك الفرد ومنطقه يتجهان إلى الادخار للدنيا حين نصحه وألزمه بجمع الحسنات والطيبات وادخارها للمستقبل البعيد فى الدار الآخرة إذ يبعث من فى القبور ويُحَصَّل ما فى الصدور وما أمره أن يتزود به ويدخره من زاد نافع بقوله : (وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) فالعمل للآخرة هو الادخار الأكبر للثروة الكبرى التى تقتنيها النفس البشرية من المعانى الدينية والمعارف والعلوم والمساعى الطيبة والنوايا الخالصة .

ومن قواعد علم النفس أن الخلق لا يتجزأ ، فالذى يؤمن بوجوب الادخار للآخرة يؤمن بوجوب الادخار فى الدنيا ؛ لأنه موجه من دينه إلى تأمين المستقبل البعيد فما بالكم بالقريب . . . وقد وجّه له القرآن الأمر بهذا التأمين المزدوج للدنيا والآخرة فى قوله :

(وابْتَغِ فيما آتَاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تَنْسَ نصيبَكَ من الدنيا) .

المبادئ العامة للاشتراكية الإسلامية فى المال

الاشتراكية الإسلامية هى التطبيق العملى لمبادىء الإسلام الاجتماعية والخلقية ولنظرياته الإنسانية ومبادئه فى العدالة والديمقراطية، ولتنظيم الحريات وما يقابلها من تبعات ومقومات لنظام التكافل الاجتماعى .

وهى اشتراكية معقولة يلتقى فى رحابها احترام الملكية الخاصة ودوافعها الفطرية كأكبر عامل من عوامل الإنتاج والتنمية الاقتصادية والإنشاء والتعمير والتنافس الذى لا بد منه لدوام التقدم الحضارى والسباق نحو اكتشاف المجهول من موارد الثروة والقوة . . . يلتقى هذا الاحترام مع المبادىء الأخرى التى قررها الإسلام للحد من سُعار تلك الملكية وجَشَعِها وقمع طغيانها ونهمها .

كمبدأ أن المال فى الأصل مال الله جعلنا مستخلفين فيه ، فلا يجوز أن نخل بعدالة توزيعه بين عيال الله ، أو أن نتصرف فيه تصرف البخلاء أو السفهاء أو الطغاة ، وأنه إذا كان لأحد من هذا المال شىء كثير أو لم يكن له منه شىء فليس ذلك لكرامة خاصة أو مهانة خاصة له عند الله ، وإنما هو من آثار إخلال الأقوياء الطغاة بالوضع الطبيعى ، وذلك بأكل مواريث الله الطبيعية التى جعلها للناس جميعاً وبحب المال حباً جماً ينسى الواجبات ويلهب سُعار جمعه واحتجازه عن الآخرين ، كما سبق القول فى إحدى مقدمات هذا الكتاب . . .

وكمبدأ أنه لا يجوز كنز المال ولا تجميده وحبسه عن الحركة فى الأسواق ، وذلك ليزيد بحركته النماء الاقتصادى وينتفع به كثير من الناس . . .

وكمبدأ أنه لا يجوز استغلاله استغلالاً ربوياً يجعل النقد سلعة وثمناً فى وقت واحد ، ويجعل جماعة من المستغلين لضرورات الناس واحتياجاتهم يمتصون بدون عمل جهود الناس وأعمالهم ويستذلونهم ، ويأخذون أرباحاً بدون عمل ، ويجرد المجتمع من جمال صورة التكافل الذى أقامه الإسلام عليه ، ويجعله فى صورة قبيحة حين لا يعطى أو يُقرض من عنده فائض من المال عن حاجته أخاه الذى هو فى أشد الاحتياج إليه ، فهذه صورة كريهة شنيعة تأباها مبادىء الإنسانية والأخلاق .

ومن أعظم معجزات الإسلام فى هذا العصر قيام النظم الاشتراكية على ما قام

هو عليه من قديم؛كتحريم الربا والاتجار بالنقود باعتبارها سلعة للاستغلال والمضاربات وافتراس المحتاجين .

وكمبدأ إطلاق بعض أنواع المال ودورانه أو تعميم ملكيته بين جميع الأيدى ، وعدم جعله دُولةً بين أيدى الأغنياء وحدهم .

وكمبدأ عدم احتكار السلع الضرورية لحياة الناس والتحكم فيها سعياً وراء الربح الفردى .

وكمبدأ تكافؤ الفرص أمام الجميع فى العلم والعمل والتجارة والصناعة والتعمير والتثمير ، بحيث لا يختص فريق دون فريق بالتمكين له وحده مع حرمان الآخرين لأى سبب من الأسباب .

وكمبدأ تحرير المصادر الطبيعية للثروة والإنتاج الحيوى الأساسى من أية ملكية خاصة ، وتمكين الدولة وحدها من استغلالها والانتفاع بما فيها من موارد هى ملك للمجتمع كله .

وكمبدأ احترام العمل وتيسيره ، واعتباره الأساس الأول للقيمة الاقتصادية للسلع وللقيمة الاجتماعية للفرد وللتنمية الاقتصادية ، وأن الذى يملك الجهد والخبرة له حق وفضل كبير فى استغلال الموارد الطبيعية للثروة .

وكمبدأ كفالة العاجز ، ومن ليس له حيلة فى الكسب والارتزاق ، لمرض أو عجز أو شيخوخة أو أى سبب خارج عن إرادته .

وكمبدأ ضمان الحد الأدنى اللازم المعقول فى المعيشة الإنسانية لجميع الأفراد . . .

تلك المبادئ الأساسية هى لب الاشتراكية المنبثقة من روح التكافل الاجتماعى الذى طالبنا الإسلام به ، وربانا عليه وأقام بناء مجتمعاتنا على أسسه . ومع هذه الاشتراكية المعقولة تسير التعاونية المعقولة والديمقراطية المعقولة ، ويبلغ المجتمع مبلغه من حياة الرشد والرغد والسداد وتوفيق الله .

بين الفكر والعقيدة والعمل

يرى القرآن أن الفكر فى الله والإيمان به بدون عمل وخُلُق ، لا ثمار له إلا ثمرة واحدة هى الدخول فى نطاق رحمة الله وعفوه والنجاة من لعنه وطرده كما قال القرآن :

(ان اللهَ لا يَغْفرُ أَن يُشْرَكَ به ويَغْفرُ ما دُونَ ذَلك لمَنْ يَشَاءُ) .

وهذا النوع من الفكر والإيمان المجرد بدون عمل يصدقه هو من الأمانى التى قد تتخلف ولا تتحقق ولذلك قال الحديث المحمدى : « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » .

فالعمل هو برهان الإيمان وأمارة صدقه ، ودليل عدم النفاق فيه ، وهو الضابط الكاشف عن حقيقته فى المعيار العام ، ولذلك قرن الإيمان دائماً بالعمل فى آيات القرآن وفى الحديث المحمدى وفى مواضعات الناس ومقاييسهم . فمن ادعى الإيمان والإسلام فله دعواه مصدقة غير مردودة كما يقول القرآن (ولا تَقُولُوا لمَنْ أَلْقى إليكم السلاَم لَسْتَ مؤُمناً) فكلمة الإيمان تعصم الإنسان من الإهدار ولكنها وحدها لا تسلكه فى جماعة المؤمنين إلا إذا عمل بمقتضى ذلك الإيمان .

وللجماعة أن تشك فى إيمانه وتتهمه إذا لم يعمل أعمال المؤمنين ويقدم بين يدى دعواه برهان صدقه ، من العمل الصالح والقول الصالح والخلق الصالح . . .

بل إن بعض آيات الكتاب تشير إلى أن عملية الإيمان وحدها لا تتحقق وتصدق إلا إذا كان معها أداء اضرائب الإيمان ، من الصبر على تكاليفه ولو كان فيها فتنة شديدة كما قال القرآن :

(ومنَ الناس منَ يَعْبُدُ اللهَ على حَرْف فإن أَصابَه خيرٌ اطْمَأَنَّ به وإن أَصابَتْه فتنةٌ انقلبَ على وجهه خَسرَ الدنيا والآخِرة ذلك هو الخُسران المُبين) .

فعلى هذا ، ليس مجرد العمل الصالح الرتيب الهين الذى لامشقة فيه أو فيه مشقة يسيرة هو مقياس الإيمان ، ولكن من مقاييسه الصبر على المكاره الشديدة وتحملها وعدم الفرار منها ولو فى مجال الموت

فالذين يعبدون الله على حرف ، ويحسبون أن تكاليف الإيمان هينة لينة قاصرون عن إدراك حقيقته وحدوده . . .

والذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم منافقون يخدعون أنفسهم ويخادعون الله وهو خادعهم وحائل بينهم وبين قلوبهم وجاعلها حجة عليهم ، لأن ما فى فطرتهم سيشهد عليهم .

والذين لا يستحضرون كل ما فى قدراتهم العقلية والقلبية عندما يعاهدون الله على الإيمان والإسلام، ولا يستجيبون لكل عزائمه بقوة وعزم ويتواصون باتباع الحق والصبر على أعبائه ، هم خاسرون بائرون قد ضيعوا حياتهم وخسروا عمرهم فى الدهر كما قال القرآن : (والعصر ! إن الانسانَ لَفِي خُسْر . إلا الذين آمنوا وعَملوا الصالحات وتواصَوْا بالحق وتواصَوْا بالصبر) .

وفى ساعة بناء العقيدة يجب أن يستحضر الدعاة والمربون كل ما فى طاقة الناس العقلية والقلبية ليقوموا بميثاق الإيمان ويستحضروا خطره وجلاله ، لأنهم يضعون أيديهم فى يد الله فيجب أن يقدسوا الكلمة التى يعاهدونه عليها .

ويجب أن تكون العظات دائمًا كأنها استئناف عملية الميثاق والتعاهد مع الله ، ولا تكون ترديداً لكلمات محفوظات لا روح فيها ولا حرارة معها .

وإننا الآن ونحن فى عهد تجديد بناء العقيدة والدولة ، يجب أن نستحضر دائمًا قيم الإيمان والعمل ولا ننساها ، ولا نسلكَ فى ترديد ألفاظها مسلك الببغاوات ، لتكون الحركة منتجة ، لها كل طاقات الوعى والإخلاص والصدق . ومع تجديد العقيدة ستجدد الدولة .

وللدولة أعباء جسام ، فليكن تحملنا لهذه الأعباء الجسام أثراً من آثار تعاهدنا على الإيمان بالله، ليكون أداؤها مصحوبًا بذلك العزم والاطمئنان والرضا والصبر والرجاء فى الله مشترى الأنفس والأموال والجهود ، ولا تكون عملية الفداء والتضحية والبناء للأوطان أو الأفكار عملية خاوية لا صلة لها بالله ولا تطلع معها لوجهه الأعلى ، ولا رقيب فيها إلا عيون الإنسان القاصرة التى لا تنفذ إلى ما فى الصدور ولا تعلم خفايا الأنفس ، فتزيغ فيها قلوب وتخون قلوب وتخسر الدنيا والآخرة .

أجل . نحن فى عصر نحتاج فيه إلى كل طاقات العقول والأيدى والنفوس

المؤمنة التى تسند ظهرها إلى يد الله القوى القادر ، وتحتمى فى جدار السموات والأرض وكل حصون الحق والصدق ، فى صراعها للعقائد والنظم الضالة المضلة التى طمست وجوه الحياة الصحيحة ، وفطرتها السليمة وأخذتها الأواخذ إلى متاهات المذاهب البعيدة عن صدق الحياة وقطعت ما بينها وبين النبأ العظيم ، . ألا وهو كلمة السر . . . كلمة الإيمان بالله واهب الحياة ، ومالك يوم الجزاء !

وفيما يخص أمتنا العربية وشعوبنا الإسلامية ، نحتاج إلى كل قوى الدفع والإصرار التى فى الإيمان ، بعد أن « أوشكت الأمم أن تتداعى إلى كسر شوكتنا وسلب ما ملكناه من الديار والأموال كما تتداعى الأكَلَةُ إلى قِصَاعها * » . . . وذلك من سوء تقديرنا للحياة الدنيا ، وخوفنا من الموت العظيم فى سبيل الأمر العظيم . . . أمر تثبيت الإيمان فى النفوس ، وإقامة الحياة العظيمة .

أجل نحن المسلمين فى هذا العصر فى معركة ضارية على أرضنا ووجودنا وشرفنا وما ورثناه من تراث الحق والخير ومعانى الأمور وعظائم الأمجاد . . . وقد آذنت أن تكون معركة حاسمة فى وجودنا أو عدمنا . . . بعد مجىء الصهيونية العالمية إلى قلب بلادنا ووضعها السكين على عنق وطننا ، وهى مؤمنة بما ورثته من مثل جاهلية ضيقة متعصبة معادية لمن عداها من الإنسانية ، فيجب أن نقابلها بأعظم أسلحتنا وهو الإيمان والعمل الواعى الضخم لتجديد كياننا ودفع هذه المحنة عنا وعن الإنسانية . والله هو المستعان !

---

* من حديث محمدى .

قيم العمل

نحن فى عهد كثير الأعباء على الدولة وعلى الأفراد ، ولا نستطيع أن ننهض بمسئولياتنا فيه إلا بالتركيز على معانى الإيمان والعمل ، لأن الإيمان هو مفتاحُ قُوَى الدفع التى تكهربنا « وتشحننا » بالعزم والإصرار والتفانى والاستشهاد فى سبيل مثلنا العليا وبلوغ أهداف حياتنا المادية والمعنوية .

وإذا كان الإيمان هو روح العمل وسره فإن العمل هو جسم الإيمان وشكْله ، والفصل بينهما لا ينتج إلا صوراً من الحياة ناقصةً أو مشوهة أو جافة أو عقيمًا .

فالذى يؤمن ولا يعمل يعيش فى فراغ وتجريد وعجز . . . ولا حصيلة واضحة لحياته ولا دلالة واضحة على إيمانه ، والذى يعمل بدون إيمان يعيش كالآلة بدون روح يلهمه ويؤنسه ويسدده ويدفعه ، ولا يحس ما وراء العمل من قيم خلقية وإنما يحس ذلة السخرة وغموض السر فى أعباء الحياة التى تمضى به بدون تفسير يعمر قلبه بالطمأنينة والسكينة والفهم .

ويقرر الإسلام أن حياة الإيمان بدون عمل هى عقيم كحياة شجر بلا ثمر ؛ فهى حياة تثير المقت الكبير لدى واهب الحياة الذى يريدها خصبة منتجة كثيرة الثمرات . يقول القرآن : (يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقُولُونَ ما لاَ تَفْعَلون ! كَبُر مَقْتاً عند الله أن تَقولُوا مالا تفعلون !) .

كما يقرر أن العمل بدون إيمان جهد ضائع على صاحبه وهباء منثور ، كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . يقول القرآن : « مَثَلُ الذين كفروا بربِّهم أعمالُهم كرماد اشتدت به الريحُ فى يوم عاصف ، لا يَقْدِرُونَ مما كَسَبُوا على شىء » ويقول : (وقَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا من عمل فجعلناه هَبَاءً منثوراً) .

وفى بداهة المجتمعات وتقاليدها أنه لايمكن الفصل بين الإيمان والعمل ، فهما فى

تصورها شيء واحد، وذلك ناشيء عن تعودها أن ترى فى الأعمّ الأغلب أن الضمير العامر بالإيمان لا يمكن إلا أن يكون زاخراً بقوى الدفع إلى الخير والصلاح وعمل البر ، وأن ترى أن أعمال الخير والبر لاتكون فى الغالب بدون ضمير وراءها عامرٍ بالإيمان بالله رب الخير والمراحم والمكارم .

وقد استدل العقلاء حتى فى المجتمع العربى الجاهلى على صدق دعوة محمد رسول الله إلى الإيمان وقضاياه ،وعلى أهليته للنبوة وكمالاتها ، بما كان عليه فى حياته قبل النبوة والرسالة من خُلُق عظيم وأمانة ومروءة وفضيلة وعقل واسع الإدراك سديد الحكم ، فقالت له زوجه السيدة خديجة حينما روّعه نزول ملك الوحى عليه لأول مرة ، وشك أنه رَئِيٌّ من الجن : «أبشر يا ابن العم ! لن يخزيك الله أبداً .. إنك لتَصِلُ الرحم وتكسب الكَلَّ وتعين على نوائب الحق » فاستدلت بسمو أخلاق الرسول وشرف أعماله ومروءة طبعه على صدق اختياره واصطفائه للنبوة والرسالة .

وما لبثت آيات القرآن أن نزلت مطمئنة للرسول مستدلة له أمام نفسه على صدقه فيما رآى وما سمع ، وعلى أن اختياره لرسالة الإيمان الكبرى حقيقة لا شك فيها ولا دخل بها لتهويم الخيال مع رَئِيّات الجن ،وكان استدلال الآيات بنفس المنطق الذى استدلت به السيدة خديجة ، فقالت مفاتح سورة (القلم) وهى ثانية السور نزولا (ن. والقلم وما يَسْطرون. ما أنْت بنعمة ربّك بمجنون .وإن لك لأجرًا غير مَمْنُون. وإنك لَعلى خُلُقٍ عظيم) .

فقرنت الآيات بين كمال إدراكه لما رآه من ملك الوحى وما سمعه منه وبين خلقه العظيم الذى رشحه لهذا الأمر العظيم أمر النبوة والرسالة .

وبهذا المنطق القرآنى الذى اطرد فى السور التالية على هذه الوتيرة الواضحة فى الجمع بين الفكر والإعتقاد والخلق والعمل وعدم تسويغ التفريق بينها ، تُهدم تلك المزاعم القديمة والحديثة فى جواز ازدواج الشخصية أو تناقضها أو توزعها بين حياة الفكر والخلق وحياة العمل ، أو بين الأخلاق الشخصية والمعاملات الاجتماعية ، فتكون للشخص حياة عقلية مؤمنة وحياة خلقية كافرة أو فاسقة ، أو تكون له حياة خاصة يفعل فيها ما يشاء من منكرات العرف والدين ، وحياةٌ عامة يزعم أنه يلتزم فيها حدود الفضائل والعدالة . . .

فهذا التفريق والتوزيع لا تعرفه طبيعة العقل والخلق الإسلاميين ولا يقره مجتمعهما الذى يريد لكل فرد فيه أن يكون سويا غير منحرف عن حياة الصدق إلى حياة الرياء والنفاق وانقسام الشخصية واضطرابها ، ويهتف دائماً مع القائل :

وغيرُ تقى يأمر الناس بالتُّقى طبيب يداوى الناس وهو مريض

بل يهتف مع القرآن (كَبُرَ مَقْتاً عند الله أن تقولُوا ما لا تفعلون) .

وهذا أمر معقول فى دين كالإسلام يدعو إلى اعتناق مذهب وحدة الحياة وامتدادها إلى الأبد بعد الموت فى الدار الآخرة ، وبالتالى يدعو إلى وحدة العمل ويجعله كله من العبادة ، سواء أكان عملا للمعيشة هنا فى الدنيا أم للعيش هناك فى الآخرة ، فلا يقول هذا عمل دنيوى وذاك عمل أخروى ، بل يقول فى كل أنواع العمل : « هذا عمل صالح ينفع الناس ويمكث فى الأرض لإمداد الحياة بمدد الخير ، فهو إذاً عبادة سواء أكان فى ظاهره للدنيا أم للأخرى ، وهذا عمل فاسد يؤذى الحياة ولا يمدها بخير ، فهو إذاً كفر أو فسق ، سواء أكان ظاهره عملا دنيوياً أم أخروياً .

ومن هنا قرر الإسلام أن كل كل الأعمال واللذات الطيبة يجوز أن تتحول إلى عبادة إذا قدمت أمامها النية الخالصة فى حفظ هبة الحياة والانتفاع بها واحترام إرادة واهبها .

ومن هنا كذلك اتسعت نظرة الشريعة الإسلامية إلى أعمال الخير والنفع فى الدنيا والأخرى على امتداد الحياة ، فأوجبت على الدولة توفير أسباب القيام بالأعمال التى لا تقوم الحياة إلا بها ، ولا يتسع العمران بدونها ، ولا يتقدم المسلمون ويرتقُون بسواها ، فجعلت ذلك فرض عين على القائمين على الدولة وفرض كفاية على جميع أفرادها ، ووضعت تلك القاعدة الواضحة لقيم الأفراد فى المجتمع ؛ وهى أن « قيمة كل امرىء ما يحسنه » فدعت بذلك كل فرد إلى ألا يكون سلبياً أو عالة أو عقيماً لا ينتج شيئاً أو معتمداً على حسب أو مال موروث بدون جهد وإنتاج ذاتى نافع صادر من فيض قدرته الشخصية .

والأصل فى تلك القاعدة الواضحة التى وضعها الإسلام لقيم الأفراد وقيم الأعمال فى المجتمعات هذا الحديث القرآنى العظيم الذى ضرب مثلا يبلغ أقصى بلاغة

التعبير والبيان بقوله : (وضرَب اللهُ مَثَلاً رجُلَين :أحدهُما أبكمُ لا يَقْدِرُ على شيء وهو كَلٌّ على مولاه ، أينما يُوجهْهُ لا يأْتِ بخير . هل يستوى هو ومن يأْمرُ بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم ؟ !) .

فى هذا المثل بيان للقيمة الحقيقية لكل فرد ولكل عمل فى المجتمع عن طريق المقارنة بين الشخصية السلبية العاجزة عن فعل الخير أو قوله ، العقيم العالة على المجتمع ، التى لا يجدى معها التوجيه إلى سُبُل الخير ، وبين الشخصية الإيجابية التى يفيض منها عمل الخير ، وتوجه غيرها إليه ، وتمضى عمليًا على الطريق المستقيم إلى وجهات النفع والإنتاج فى الحياة .

إتقان العمل

قد تشعبت أنواع العمل فى هذا العصر بتشعب العلوم والفنون والصناعات التى لا تكاد تعد ، وصارت طوائف العمال فى الصناعة والتجارة والزراعة تخضع للتوجيه العلمى والفنى الذى ينمو دائمًا ، وصارت الكفاية الفنية هى سلاح كل عامل ، واتسع نطاق التنافس بين الشعوب والدول فى وقت السلم فى ميادين الأعمال المختلفة ، وصار السبق فى ذلك لمن يتقنون الأعمال ويغارون عليها ويجوّدونها ويطوّرونها إلى الأحسن والأفضل .

وقد دعا القرآن إلى السباق الحميد فى سبيل الخير والتقدم فى الدنيا فقال « فاستبقوا الخيرات » كما دعا إلى التسابق فى سبيل الفوز فى الأخرى فقال (سابِقُوا إلى مغفرة من ربِّكم وجنةٍ عَرْضُها كعرضِ السماءِ والأَرض)

كما دعا الرسولُ إلى إتقان العمل والإحسان فيه فقال: « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» وقد وعد الله بأداء أجر كل عامل محسن فيقول القرآن: « إن الله لا يُضِيع أجرَ من أحسنَ عملا » «ونعم أجرُ العاملين » .

ونوه القرآن بإتقان الله صنع مخلوقاته فقال : « صُنْعَ الله الذى أتقن كلَّ شىءٍ » (قال ربُّنا الذى أعطَى كلَّ شىءٍ خَلْقَهَ ثم هَدَى) .

وهذا يوجه المؤمنين إلى أن يتقنوا عملهم ، وقد أمروا أن يتخلقوا بأخلاق الله .

والدلالات الاجتماعية تشير إلى أن ميزان التقويم للأشخاص ومعيار اعتبارهم وتقديرهم هو بحسب اهتماماتهم بالعمل وإحسانهم فيه .

فإذا لم يكن الشخص من العاملين وكان من السلبيين أو المتواكلين القاعدين عن الأعمال فقد أهدرت قيمته وضاع وسقط من موازين الحساب والتقدير : كما قال الخليفة عمر بن الخطاب : « أرى الرجل فيعجبنى فإذا قيل لا عمل له سقط من عينى » .

ويجب أن نفطن فى هذا المجال إلى أن أجسام الناس ما هى إلا آلات يجب إعمالُها وعدم تعطيلها وإلا دمرها العجز والخور والشلل وصارت إلى الموت البطىء

والاسترخاء والصدأ كأية آلة تعطل، وتحولت إلى أداة تعويق للحياة الاجتماعية ونموها ، بدلا من أن تكون أداة قوة ونماء وازدهار .

وقد طبع الإسلام نفوس أصحابه على تقديس العمل وترتيب قيم الأشخاص عليه والاحتفال بالعاملين وتكريمهم فقال القرآن :

(وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يُرَى ثم يُجْزاه الجزاء الأَوْفى) وهذا محمد رسول الله حينما صافح يداً خشنة فسأل وعلم أن خشونتها من أثر استعمالها للمسحاة ، وهى أداة من أدوات فلاحة الأرض قال : « هذه يد محرمة على النار » وقال : هذه يد يحبها الله ورسوله » .

وعرق العامل وجهده وتعبه من أسباب مغفرة الله له ذنوباً لا يكفرها صوم ولا صلاة ولا أى واجب من واجبات العبادة ولذلك قال الحديث المحمدى : « من بات كالاً (أى متعباً من العمل) بات مغفوراً له وقال أيضاً ما معناه : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها صوم ولا صلاة ولا حج وإنما يكفرها سعى الرجل على عياله » .

ومما مكن لشرف العمل المادى وقيمته وإتقانه فى المجتمع الإسلامى أن القرآن جعل أبطال الرسالات الدينية من الأنبياء والمرسلين على مدى التاريخ هم فى الوقت ذاته رواد فى مجالات العمل والقوة المادية .

ولأهمية هذا نعيد هنا خلاصة مما سبق ذكره فى فصل (تخلف التفكير المادى . . .) من المقدمات . .

فهذا « نوح » كان رسولا نبياً وكان رائداً من رواد الصناعة ، إذ أوحى الله إليه بصنع السفينة التى نجته هو ومن معه من الطوفان الذى أغرق قومه الكافرين ، فكان بدء صناعة السفن على يديه .

وإبراهيم أبو الأنبياء كان رسولا نبياً وكان فى الوقت ذاته يحسن صناعة البناء ولذلك رفع القواعد من البيت الحرام بمكة هو وابنه إسماعيل .

ويوسف الصديق كان رسولاً نبياً حاملاً لعهد الله مع آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وكان فى الوقت نفسه ذا عقل اقتصادى يحسن تدبير أمور الناس المعاشية ، فأشار على فرعون مصر فى عهده بأن يزرع سبع سنين دأباً ويخزن فائض حصاد الزرع وغلته فى هذه السنوات السبع استعداداً لسنوات الأزمة المقبلة التى استشفها بتأويله للرؤيا التى أُرِيَها فرعون فى منامه وقصها عليه ؛ ثم لما استخلصه فرعون

لنفسه بعد تأويله للرؤيا ، طلب يوسف أن يوليه منصب القائم على خزائن الأرض فى دولته ليخدم الناس فى مصر وما جاورها بتدبير أمور معاشهم وأقواتهم ، فكانت رسالته مزدوجة للحياة الروحية والحياة المادية كما قال القرآن : (قال اجْعَلْنى على خزائِن الأَرض إنى حفيظ عليم »

وموسى رشحته قوته البدنية وأمانته لأن يعمل للنبى شعيب فى رعاية أمواله ويُعينه عشر سنوات ، وأن يزوجه إحدى ابنتيه بعد أن قالت :

(يا أبَتِ استأْجِرْه إنَّ خيرَ من استأْجرتَ القوىُّ الأَمين) .

وداود كان نبيًّا ورائدًا من رواد صناعة الحديد وكان يأكل من عمل يده كما قال القرآن (وألنَّا له الحديد أن اعمل سابغاتٍ وقَدِّرْ فى السَّرْد واعمَلُوا صالحاً) فهذا أمر إلهى بإصلاح العمل المادى وإتقانه .

وسليمان بن داود كذلك كان من المحتفلين بالعمل والصناعة كما حدث القرآن فى قوله : (وأَسَلْنا له عَيْنَ القِطْرِ أى (النحاس) ومن الجِنِّ من يعملُ بين يديْه بإذن ربِّه ومن يَزِغْ منهم عن أَمْرِنا نُذِقْه من عذابِ السعير . يعملون له ما يشاءُ من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجَواب وقدورٍ راسياتٍ ، اعملوا آل داود شكرًا وقليلٌ من عبادى الشَّكور) .

وهنا امتنان بالعمل المادى وأصل صريح فى أن العمل المادى من الشكر لله .

وعيسى المسيح كان من شرف العمل أن أجرى الله على يديه ألوانًا من طب الأجسام وعلاج أمراضها وإحياء مواتها معجزة وكرامة له .

ومحمد خاتم الأنبياء والرسل ، شرف الله بشبابه العمل فى الرعى والتجارة فى فى أموال الناس وشئون الدفاع عن الحرمات ، كما شرف العمل المادى بدعوته التى جعلت العمل قرين الإيمان ولا يصح أحدهما بدون الآخر على نحو ما بينا سابقًا وهكذا نرى أن خلاصة دعوة الإسلام هى هدى العقول والقلوب إلى طريق الله الخالق ، وهدى الأيدى والجوارح إلى جميع أنواع العمل النافع الذى تنمو به الحياة المادية وتزكويه الحياة الروحية وتأتى به النفوس جزاءها وثوابها فى الحياة الثانية بدار البقاء والخلود .

العمل أساس الجزاء

العمل أساس بناء الكون كله ، بناه الله الخالق ويقيمه ويجدده فى عمل مستمر من يده القادرة القاهرة .

أما الكلام والبيان فهو خاصة الإنسان يفلسف ويجادل ويثرثر ، وقد ينحرف بالكلام عن سير الطبيعة كأن الكلام مطلوب لذاته ، مع أنه ليس إلا وسيلة لتسجيل الأعمال وللدفع إليها والتمهيد لها والشكر لله عليها . وصدق القرآن :

« وكان الإنسان أكثر شىء جَدَلا » .

وما دامت الطبيعة كما نشاهدها ، صمتًا مطبقًا وعملا مستمرًا ، فينبغى أن نتخلق بأخلاق الله خالقها ونسير وراء ما يوحيه إلينا فيها من كثرة العمل ؛ فتكون حياتنا أعمالا منتجة صالحة معمرة دائبة . وتكون قرانا ومدننا كخلايا النحل كل ما فيها عمل وإنتاج وتنظيم وتوزيع .

وفى العمل المنظم لذة ورياضة نفسية . وغالبًا ما يكون جزاؤه فيه ، لِمَا ينشأ عنه من الطمأنينة وارتياح البال والضمير بعد أدائه كاملا .

وحقًّا إن من أسعد لحظات العمر لحظةَ انتهاء العمل الكبير وجنى ثماره و « عند الصباح يحمد القوم السرى » كما يقول المثل العربى .

والعمل رأس مال الفرد والأمة ، وقد صار فى العصر الحديث هو الأساس الأول للاقتصاد والكسب والاعتبار الاجتماعى . وروح العصر تمجد العمل والعامل فى جميع المهن والحرف ، بعد أن كان الناس سابقًا لا يعرفون له حقه كما يعرفونه لأرباب الثقافات النظرية .

والعمل الضرورى للمجتمع شرف مهما كان مجاله ، وقد قيل : « اليد العاملة طاهرة ولو كانت تعمل فى الطين وروث الدواب ، واليد العاطلة نجسة ولو كانت ملفوفة بالحرير والديباج » ، وفى الحديث المحمدى : « لأَنْ يحملَ الرجل حبلا فيحتطب به ثم يجىء فيضعه فى السوق فيبيعه ثم يستغنى به فينفقه على نفسه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » وفى حديث محمدى آخر : « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس » ويقول أبو سليمان الدارانى أحد كبار العابدين :

« ليست العبادة أن تَصُفَّ قدميك (يعنى الصلاة) وغيرك يَقُوتُ لك ؛ ولكن ابدأ برغيفَيْك فأحْرِزْهما ثم تعبد) .

والعمل مطلوب للدنيا وللآخرة ، ولا جزاء فيهما للفرد إلا بناء على عمله ، يقول القرآن : وأن ليس للإنسان إلا ما سَعَى . وأن سَعْيه سوف يُرَى . ثم يُجْزاهُ الجزاء الأوفى » وما أعظم وأجل ذلك الدستور الذى يبنيه هذا القول العظيم والأثر الجليل : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » ، فهو من أعظم الأقوال الموجهة المضيئة التى تدفع الإنسان للعمل المستمر للحياة الدنيا ولما بعدها .

أما العمل للحياة الدنيا فهو كل جهد يؤدى إلى جلب نفع خاص أو عام ، أو منع أذى خاص أو عام ، أو ازدهار صناعة مفيدة أو زيادة طيبات الحياة أو انتشار عمران .

وأما العمل للآخرة فهو أداء المفروضات الدينية فى التعبد والتفكير والتعلم وكبح نوازغ الشر والشهوة والجريمة فى النفس ، كما أنه فى الوقت نفسه كل عمل دنيوى نافع قدمت أمامه نية طيبة خالصة لله .

ومن قوانين علم النفس أن « نفسك إذا لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل » ، فينبغى للمرء أن يفر من الفراغ القاتل لقوى عمله المبدد لطاقاته وإمكانياته ، لأن ذلك الفراغ من العمل هو سبب البوار والضياع .

وقد ذم القرآن الفارغين المترفين المكذبين ونعتهم بالبوار فى قوله تعالى : (وكانوا قوماً بُوراً) .

وحقاً إن ذوى الترف والفراغ والاعتماد على المال الموروث بدون عمل ، يشاهد فيهم البوار والفساد تماماً كما يشاهد فى الأرض البائرة التى لم تزرع ولم تنبت إلا الشوك والحسك .

والشعوب الأكثر عملا هى الشعوب التى تتمتع بوفرة الإنتاج الزراعى والصناعى وما يتبعهما من الرخاء وازدهار العمران وتغلب الجد على طباعهم وتقدير قيمة الوقت وإدراك « أن الواجبات أكثر من الأوقات » فأفرادها غالباً يحترفون حرفة . حتى نساؤهم وأطفالهم فى شغل دائم بأعمال وصناعات منزلية خفيفة كالنسيج والحياكة

وتربية الحيوان المنتج وعمل اللمسات الخفيفة فى كثير من المصنوعات التى تعرض فى الأسواق .

والأمم فى دَوْر التأسيس والنهضة تحتاج إلى روح العمل الجاد ومضاعفة الجهد واحتقار ما يسميه الفارغون البائرون (قتل الوقت) ؛ كأن الوقت عدو يجب التخلص منه ! مع أنه هو الحياة ذاتها . وقد قيل « الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك » وليس « الوقت من ذهب » فقط كما يقال ، بل هو معدن أثمن من الذهب والماس... هو من أنفاس الروح ونبض القلب ونور العين وفيض الفكر !

والتجربة تدل على أن الدأب على العمل يحسِّنه ويرتفع بمستوى كفاية العامل ويكسبه مِرانةً وثقافة مهنية خاصة وسرعة فيه . وقد صار الآن التبرع بزيادة العمل ساعة أو الإضراب عن العمل ساعة يؤثر تأثيراً إيجابياً أو سلبياً فى إنتاج الدولة وكيانها ، ،مما يدل على أن العمل سلاح خطير فى معارك الهجوم والدفاع والمقاومة وأنه نوع ذو أهمية كبرى من الجندية الدائمة لصيانة شرف الوطن وحفظ كيانه ، فليس الجندى المعاوم أو المجهول هو وحده من يحمل السلاح ويجاهد فى الميدان ويوصف بالبطولة ويتلقى شرف الشهادة إذا ما سقط صريعاً هناك ، ولكن الجندى هو هذا وهو كل من يقف وراءه ويحضر له عُدته وذخيرته وطعامه، ويكفيه رعاية أولاده وأسرته ويشترك فى معركة بناء الوطن فى الجبهة الداخلية بالتعليم والصناعة والتجارة والعمارة والزراعة وغيرها من الحرف التى تشد ظهر الجندى المحارب وتواليه بالمدد وبالطمأنينة على وطنه الذى تركه وراءه لمواجهة المغيرين عليه بالفداء والتضحية . وصدق الحديث المحمدى : « من جهَّز غازياً فقد غزا » .

وقد تكفل الله بالجزاء الأوفى على كل عمل صالح للدنيا أو للآخرة فقال : « فاستجاب لهم ربُّهم أنى لا أُضِيعُ عملَ عاملٍ منكم من ذكَر أو أُنثى » كما طمأن كل عامل على تقدير عمله والتنويه به وتسجيله له وتوجيه النظر إليه فقال « وقل اعملوا فَسَيَرى اللهُ عمَلَكم ورسولهُ والمومنون ، وستُرَدُّون إلى عالم الغيب والشهادة فيُنَبِّئكُم بما كنتم تعملون » .

الترف والتعطل بالوراثة

إن الترف مرض خبيث من أمراض الغنى ويُسْرِ العيش وفراغ الحياة من الأعمال والواجبات ، والإسراف فى المتاع ، وبه تتحول الرجولة والأنوثة الصحيحتان إلى رخاوة وميوعة وأذواق مريضة وطباع منحرفة ، فتتعطل قواها وتصير كالأرض البور التى لا نفع فيها ، بل تكون من أسباب الضرر المحقق .

والاستمتاع بطيبات الحياة وزينتها التى أخرج الله لعباده أمر طبيعى مباح أو مطلوب ما دام من غير إسراف ولا خيلاء ولا انحدار مع طاعة الشهوات والأهواء ؛ فإذا أُسْرِف فى المتاع وركنت إليه النفس دائمًا وآثرته على حياة الخشونة وأداء الواجبات والأعمال النافعة ، فقد استحال إلى ترف ومرض وضعف وبوار . . . وإلى ذلك يشير قول القرآن :

« ولكن مَتَّعْتَهم وآباءهم حتى نَسُوا الذِّكْر وكانوا قوماً بورًا » .

فالمتاع الذى ينسى الواجبات نحو الله والوطن يسلم النفوس إلى البوار والضياع ، فهو سوس الحضارات ومدمر قوى الأمم وجالب خرابها وتَبَابِها . وقد ذكر القرآن أن المترفين هم من أدوات انتقام الله من الأمم الظالمة التى بطرت معيشتها وخالفت عن أمر ربها ، فقال :

« وإذا أردنا أن نُهْلِك قريةً أَمَرْنا مُترَفِيها ففسقوا فيها فحَقَّ عليها القولُ فدمرناها تدميرًا » .

وطبيعة الترف تحمل على الضيق بحياة العمل والكدْح ، حتى تَضْمُر قوى الإنتاج والكفاح والمقاومة وحب المغامرات ، وتتحول النفوس إلى أدوات مستهلكة غير منتجة . ومتبطلة غير عاملة . وقد فطن المربون قديمًا وحديثًا فى الأمم السابقة فى الحضارة ، إلى ضرورة مقاومة أمراض الترف لدى أبناء الأغنياء ومعادلة أسبابه لديهم بالرياضات العنيفة والرحلات الشاقة فى مجاهل الأرض وأخطار البحر والصيد والقنْص والكشف والارتياد وحياة الجندية .

والترف يدعو إلى الانحلال وانهيار الأخلاق بسلطان الشهوات ، ومقاومة رسالات

الخير والقوة ؛ ولذلك كان أكثر المقاومين لدعوات الرسل هم من أولى النعمة ، وقد لاقى منهم مولانا محمد والنبيون من قبله العنت الشديد والصراع المر الذى أشار القرآن إلى صور منه كما فى قوله : (ذرنى والمكذّبين أُولِى النَّعمة ومَهِّلْهُم قليلا) ، (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفُوها إنّا بما أُرسِلتُم به كافرون) ، (واتَّبع الذين ظلموا ما أُتْرِفُوا فيه وكانوا مجرمين) ، (ذرْنِى ومَنْ خلقتُ وحيدًا وجعلتُ له مالا ممدودًا وبنين شهودا) ، (وقال الملأُ الذين كفروا وكَذَّبوا بلقَاءِ الآخرة وأَتْرفْنَاهم فى الحياة الدنيا : ما هذا إلا بشرٌ مثلكم) إلى آخر الآيات فى هذا الشأن .

ونحن نشاهد فى المترفين القلق والجوع الدائم إلى المتاع، يطلبون الجديد منه دائمًا ، ثم سرعان ما يسأمون ويملّون باحثين عن غيره ، وهكذا :

وصدق قول عمر ابن الخطاب « اقْدَعُوا نُفُوسكم عن شهواتها فإنها مَلِقَة ، وإنكم إلاّ تقدعوها تَنْزِعْ بكم إلى شرغاية ، ورُبَّ شهوةِ ساعةٍ أورثت حزنًا طويلا » .

وفى عصرنا هذا تضخمت أسباب المتاع وتنوعت ، وصارت فى متناول الجميع بعد أن كانت سابقًا غير ميسورة إلا لأرباب الغنى ، فقد كثرت أدواتها من (سينما) وملاه وحانات ومراقص ومشاهد طغت على نفوس الجماهير طغيانًا حبب إليهم النزوع إلى حياة الراحة والمتاع المترف والسعى إليه بكل وسيلة ، مما أشاع بعض أعراض الانحلال والتفكك . ولولا المقاومة من حياة خشونة العمل والجندية والرياضة لأصاب الناس من ذلك شر وَبيل .

ومن ظواهر الحياة فى هذا العصر كثرة صناعات الترف وافتنان أربابها فى إرهاف ميول الجماهير إليها وإغرائهم بها بالخداع والتمويه والدعاية ، مما حمل الأغنياء على مضاعفة الإسراف وتبذير الأموال فى اللذات والمفاخر الكاذبة بالأثاث والرياش وأدوات الزينة ، وحمل الفقراء فى الوقت ذاته على التطلع إليهم والشعور فى أنفسهم بالحسد ودبيب نزاع الطبقات .

ومن السخرية بعقول أهل هذا العصر تسلط موجهى « المودة » عليهم رجالا

ونساء ، وحملهم على الإسراف فى اقتناء الملابس والحُلِىّ وأدوات الترف التى تستهلك الأموال الطائلة وتبتلعها فى بالوعات كثيرة بدون حساب ، وتعطل توجيهها إلى الوجهات المنتجة كالتصنيع والتجارة وتأسيس الشركات ومؤسسات البر والخدمة العامة : وإنهم بذلك يتحدون الروح الحقيقى لهذا العصر وهو روح الكدح والعمل ومحاربة الترف والبؤس لإقرار الاشتراكية الإسلامية المعتدلة الموجهة إلى خير المجموع والقاضية على حرب الطبقات بتضييق الفروق بين أنواع حياتها .

وقد فطن الإسلام من قديم إلى ما فى حياة الترف من بوار وفساد فحمل عليها حملات ثبتت أصول تربية الخشونة والعمل والإنتاج والقوة والرجولة والأنوثة الصحيحة ناصحاً بالقول المأثور عن عمر بن الخطاب : « اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم » كما حمل فى الوقت نفسه على حياة البؤس والحرمان ودعا إلى رفع مستوى المعذبين فى الأرض بالفقر والكدح . فبينما طارد الترف فى أعلى المجتمع طارد البؤس فى أسفله ليخرج المجتمع المتقارب المتناسق الذى يوجه الأموال والجهود إلى الإنتاج الأكثر فائدة للجميع ، لا إلى الإسراف والمتاع الشخصى المترف الذى يرضى الأنانيات الضيقة المستهلكة التى يمحق الله الحياة بسوء تصرفها .

وقد سلك الإسلام إلى ذلك كله طريق تحريم اكتناز الأموال واحتكار التجارات والكسب غير المشروع والربا ، لأن ذلك يفضى إلى حياة الترف ، ويخل بميزان التعامل الطبيعى بالبيوع والصناعة ويعطل القوة الحركية الطبيعية للأموال .

وقد دعا الإسلام إلى التقارب بين أفراد الشعب فى المأكل والملبس مهما اختلفت مكانتهم الاجتماعية ، فحرم أن يترف الفرد فى طعامه وشرابه وكسائه بينما جاره أو خادمه أو مواطنه محروم من الضروريات .

قال المعرور بن سويد : « رأيت أبا ذَرٍّ عليه حُلّة وعلى غلامه — أى خادمه — مثلُها ، فسألته عن ذلك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (هم إخوانكم وخَوَلكم . جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبُهم فإن كلفتموهم فأعينوهم) .

وفى هذا السلوك العظيم قدوة عظيمة فى إذابة الفوارق بين الطبقات ، وفى إنصاف القوة العاملة خاصة ، واحترامها وعدم إرهاقها بما يشق عليها .